الباب الأول
ثوابت الحوار للوحي الإلهي
في ضوء القرآن الكريم

وقد قسمت هذا الباب إلي فصلين وهما:

الفصل الأول: أصول الحوار الثابتة للوحي الإلهي في ضوء القرآن الكريم.

الفصل الثاني: موضوعات حوار الوحي الإلهي لأصحاب الحضارات في ضوء القرآن الكريم.

obeikandl.com

الفصل الأول
أصول الحوار الثابتة للوحي الإلهي في ضوء القرآن الكريم

مدخل:

لقد لمسنا في حوار القرآن الكريم الأدب الرفيع والأسلوب الذي يعلو على أساليب البشر. ولو تأملناه جيدًا لوجدنا فيه الأسس القويمة لآداب الحوار بالحق التي تصونه عن أن يتحول إلى مماراة بعيده عن نشدان الحقيقة أو إلى مشاحنات أنانية ومشاغبات ومغالطات ونحو ذلك مما يفسد القلوب ويهيج النفوس ويورث التعصب ولا يوصل إلى الحق.

بل إن القرآن الكريم هو كتاب الحوار الذي تكفل ببيان الحق كله والرد على كل شبهة، وعلم أتباعه حمل هذا الحق وإيصاله إلى جميع البشر على مختلف مستوياتهم واتجاهاتهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٥٨].

وشكل الحوار في القرآن الكريم من حيث كونه مراجعة الكلام بين طرفين قد أخذ المسافة الأوسع من صفحات هذا الكتاب الكريم، وإن لم تستخدم كلمة «الحوار» إلا قليلا، وإنما استخدمت مادة «القول» التي وردت في «١٧٢١» موضعًا[1]، والملفت للنظر أن كل كلمة أو

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص٥٥٤) ومابعدها.

شبهة أثارها الناس رد القرآن عليها، فجعل كلامهم بعد قوله: ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ ورد بقوله: ﴿ قُلۡ ﴾ وقد وردت كلا الكلمتين في القرآن «٣٣٢» مرة بنفس العدد تمامًا.

وقد قسمت هذا الفصل إلى مبحثين:

الأول: أركان الحوار وشروطه.

الثاني: أصول عامة للحوار.

obeikandl.com

المبحث الأول

أركان الحوار وشروطه

وهي ثلاثة: المُحاوِر والمحاوَر والحوار.

وقد جعلت الكلام على الركنين الأول والثاني وهما المتحاورين على ثلاثة مطالب:

الأول: الشروط، الثاني: السمات، الثالث: الآداب.

وأما الركن الثالث من أركان الحوار فقد جعلت الكلام فيه على مطلبين:

الأول: شروطه، الثاني: آدابه.

الركن الأول والثاني

المحاوِر والمحاوَر

وهما طرفي الحوار، ونظرا لأهمية كل منهما فإن العلماء قد وضعوا لهما شروطا وسماتًا وآدابًا لابد من توفرها في كل منهما تتمثل فيما يلي:

المطلب الأول

شروط المتحاورين

يشترط في المحاوِر نفس الشروط التي تشترط في المحاوَر وهى كما يلي:[1].

١. الالتزام بأدب الحوار:

فالمحاور المسلم منضبط في أقواله وأفعاله، وفي كلامه وحركاته بمنهج الكتاب والسنة، ومنها منهج الآداب والسلوك والأخلاق فضلا عن الأدب في الحوار يضمن استمراره، وتحقيق ثمرته ويفتح باب قلب الطرف الآخر لقبول الحق والرجوع عن الباطل.

٢. فهم الذات:

فهم الذات من الشروط التي يحتاجها كل من المحاوِر والمحاوَر. قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ

(١) الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب (ص٥٩: ٦٤).

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. تلك هي البداية الحقيقية إلى فهم ذاتك وترتيبها من الداخل حتى تتهيأ للعلاقات الخارجية، والحوار: لغة العلاقات؛ علاقات الإنسان ونفسه، كثيرًا ما يختلف الإنسان مع نفسه فيما يموج في داخله من أفكار أو ما يعرض له من مواقف قد لا يرضى عنها فينازعها بأفكار أو مواقف أخرى، علماً بأن مراحل العمل في القلب خمسة تبدأ بالخاطرة والتي إذا استسلم لها العبد تتحول إلى فكرة إلى همة إلى عزيمة إلى إرادة يعقبها عمل الجوارح، ويظل الإنسان في صراع ذاتي بينه وبين نفسه، و عقله وقلبه مع كل مرحلة من هذه المراحل الخمسة داخل قلبه ثم بينه وبين جوارحه في قدرتها علي تنفيذ ما استقرت عليه إرادته، ويظل كذلك في دوامات الصراع حتى يحسم أمره وكلما كان الإنسان أهدى وأوفق إلي تزكية نفسه وترويضها لأمر ربه وهدى نبيه ﷺ كلما كان موفقاً، وأهدى سبيلا، فمن اصطنع لغة الحوار سبيلا إلى نفسه قلت مشاكله، وهدأت نفسه، ووضح منطقه، واجتاز مراحل العمل في قلبه وصار واقعاً في حياته.

٣. التوازن في حوار الذات مع الآخر:

كذلك يحكم الحوار علاقات الإنسان بمجتمعه. حقيقة الإنسان أنه اجتماعي بطبعه، وهو لا يحيى وحده لكنه جزء من هذا المجتمع الذي يحيى فيه، بل جزء من النسيج البشري، له كبشر مصالحه الخاصة التى تعبر عن وجهة نظره كفرد والتي تخدم مصالحه الفردية، وتسول له أن يطلب من المجتمع كل شيء وفق قيمه الفردية من أنانيته وتسلطه، وهناك مصالح عامة تعبر عن وجهة نظر الجماعة تخدم قيمها الجماعية كالتضحية والفداء، والعمل في سبيل الجماعة، فبأي رؤية تكون علاقة الفرد مع الجماعة؟ هل من منظور الأنانية؟ أم من منظور التضحية، أم من منظور التنازلات المتبادلة بين قيم الفرد الذاتية وبين قيم الجماعة الاجتماعية؟ فلأجل تحقيق مبدأ العلاقات الاجتماعية بين الفرد والجماعة من بين تلك المنظورات الفردية والاجتماعية، ينبغي أن يقوم حوار بين ذات الفرد ومنظورها لتفصل قيمها الذاتية التي تعبر عن حريتها الخاصة وهي اجتماعية رضي عنها المجتمع. مثل: الزواج والطلاق... إلخ، وبين القيم الاجتماعية التي تعبر عن حبه المشاركة الجماعية، ومن هنا يستطيع الفرد نفسه أن يفصل بين ما يجب الاحتفاظ به لذاته وبين ما يجب أن يتنازل عنه للمجتمع فلا يذوب الفرد في الجماعة، ولا تذوب الجماعة في الفرد، أو أن تطغى الجماعة على الفرد أو أن يطغى الفرد على

الجماعة، لذلك كانت لغة الحوار ضرورية ليتفهم الفرد ذاته وذات المجتمع، ولا أعنى حوارًا يدور في شكل اجتماعات شعبية، إنما أعنى: أن الفرد من خلال ما يتعلمه ومن خلال ما يدرسه ومن خلال تربيته عليه أن يدرك موقفه من ذاته وموقفه من المجتمع، وعليه أن يدرك أيضًا ما يعبر عن قيم المجتمع وما لا يعبر عنها، وإذا ما أدرك ذلك واطمأنت له نفسه عن اقتناع جاء سلوكه معبرًا عن موقفه بالنسبة لذاته وقيمها، وبالنسبة للمجتمع وقيمه[1].

٤. علاقة المحاور بلغته:

يحكم الحوار علاقات الإنسان بلغته لذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

ويقول المثل العربي: «أساء سمعا فساء إجابة» فعلى قدر إدراكك للغة يكون وضوح المطروح للمناقشة، ويكون مدى تفهمك إياه، فإذا ما انقطع بين الإنسان وبين لغته حبل المفاهيم المشتركة عبر كل ما بلسان خاص، وكثرت وجهات النظر الثنائية التي تشكل دروبًا مظلمة بين الناس ولغتهم وأصبح حوارهم كحوار الطرش، فلغة التفاهم إذن ينبغي أن تكون اصطلاحية محددة بعيدة عن الاحتمالات الخاصة التي يتشعب معها الموضوع والتي تحتويها شقة الخلاف، كذلك ينبغي أن تكون لغة التفاهم بعيدة عن ثنائية الظاهر والباطن والرمزية، وأن تكون صريحة ليس فيها محذوف يحتاج إلى تقدير، وليس فيها ما يرهق اللغة من مرادات لا تحتملها، وليس فيها أسلوب خطابي يعتمد على الشحن الإنشائي والصيغ المحفوظة، فالذي يعتمد على المنطق الخطابي يبعد كثيرًا عن القضية المطروحة ليستبد بمحفوظاته على أمر الجماعة وما بينها من حوار، فهو عادة لا يجيد الكلام في كل شيء إنما يجيد الكلام في بعض موضوعات عوَد نفسه عليها يلجأ إليها في كل مناسبة، ولا يود تحصيلا جديدًا، فلأجل ألا يخذل نفسه أمام الجماعة يلوي الحوار إلى لغته الخطابية ويقحم ما يحفظه من موضوعات - وهي غير مطلوبة- على موضوعات الندوة وهي المطلوبة، ثم تتفتح مواضيع ثنائية تغري الجماعة بالكلام، ثم تبتعد عن الحوار شيئا فشيئا لتفيض من وحي بيانها وتواري عجزها عن التركيز حول نقاط الموضوع وتقنع نفسها بأنها أدت ما عليها.

---

(١) مجلة الأزهر - شعبان١٤٢٠/ نوفمبر١٩٩٩- (ص١١٢٨، ١١٢٩)

٥. الإخلاص:

أي أن يكون حواره في سبيل الله، ونصرة دينه، وإعزازًا لكلمته، مجردًا من الأهواء والشهوات النفسية، أو النظر إلى الأغراض الشخصية، بعيدًا عن حب الرياء والسمعة وحب الظهور، ونحوها من العجب والكبر والغرور، وبذلك ينجح الحوار ويؤدي ثمرته.

والإخلاص من أعظم الأصول المهمة، ومن أهم أعمال القلوب عمومًا.

قال ابن قيم الجوزية: «أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح مات، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح».

وقال أيضًا: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها وموارِدها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد من الأعمال التي ميزت بينهما، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح، وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل الأوقات»[(١)].

وقال ابن تيمية: «والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر الذنوب كما في حديث البطاقة[(٢)]، فهذا حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٤، ٣٣٠).

(٢) عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ فَقَالَ إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**». رواه الترمذي، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم (٢٨٥٠) وقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وابن ماجة، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة رقم (٤٤٤٢)، والحاكم وأحمد.

كلمة التوحيد، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة» ثم ذكر حديث البغيِّ التي سقت كلبا، فغفر الله لها[١]، والرجل الذي أماط الأذى عن الطريق، فغفر الله له، ثم قال: «فهذه سقت كلبا بإيمان خالص كان في قلبها، وإلا فليس كل بغى سقت كلبا يغفر لها، فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال».

ومن المسالك الدقيقة للرياء أن يجعل الإخلاص لله وسيلة لا غاية، وقصدًا لأحد المطالب الدنيوية، وقد نبه ابن تيمية على تلك الآفة الخفية، فكان مما قاله: «حكى أن أبا حامد الغزالى بلغه أن من أخلص لله أربعين يوما تفجرت الحكمة في قلبه، قال: فأخلصت أربعين يوما، فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة ولم تخلص لله تعالى»[٢].

وإذا كنت طالب حق فكن داعية إليه، واحذر من كل ما يفسد عليك هذه المهمة الجليلة.

قال الخطيب البغدادي في ذكر آداب الجدل والمناظرة: «وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم»[٣].

ومتى أخلص المحاور لله فإنه لا يبالى أأظهر الله الحق على يديه أم على يد من يحاوره، ويرى محاوره معينًا لا خصما، فيشكره إذا عرفه الخطأ، أو أظهر له الصواب.

قال الإمام الشافعي: «ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ»[٤].

وقال أيضًا: «ما كلمت أحدا قط إلا وأحببت أن يوفق ويسدد ويعان، وما كلمت أحدا قط إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه»[٥].

---

(١) حديث البغي رواه مسلم في صحيحه، باب فضل ساقي البهائم المحترمة رقم (٥٩٩٧)، والبيهقي والطبري وابن حبان.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٦٦- ٦٧).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥).

(٤) مناقب الشافعى للرازى (ص٣٦٠).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٦).

قال الحافظ ابن رجب معلقًا على كلام الشافعي: «وهذا يدل على أنه لم يكن له قصد إلا في ظهور الحق، ولو كان على لسان غيره ممن يناظره أو يخالفه، ومن كانت هذه حاله، فإنه لا يكره أن يرد عليه قوله، ويتبين له مخالفته للسنة، لا في حياته ولا بعد مماته، وهذا هو الظن بغيره من أئمة الإسلام الذابين عنه، والقائمين بنصره من السلف والخلف، ولم يكونوا يكرهون مخالفة من خالفهم أيضا بدليل عرض له، ولو لم يكن ذلك الدليل قويا عندهم بحيث يتمسكون به، ويتركون دليلهم له»[(١)].

وقال أبو حامد الغزالي: «فانظر إلى مناظري زمانك اليوم، كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه؟ وكيف يخجل به؟ وكيف يجهد في مجاهدته؟ وكيف يذم من أفحمه طول عمره؟»[(٢)].

٦. العلم:

فلا بد أن يكون حواره عن علم وبصيرة، إذ إن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح، وقد ذم الله المجادل بغير علم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦]. والعلم اللازم للمحاور في أي قضية يشمل:

أ- العلم بكتاب الله وسنة رسوله وخاصة في المسألة المختلف فيها، والتي يريد أن يحاور فيها، وأن يكون قادرًا على النظر والموازنة والترجيح بين الأدلة المختلفة، ملمًا إلمامًا عامًا بأصول الأدلة، يعرف الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والخاص والعام، والصحيح والضعيف، ومدار ذلك على أصول الفقه وعلوم الحديث، وكذلك العلم بالواقع.

ب- العلم بمنهج السلف الصالح قولا وعملا، وفهما واعتقادًا، قال الأوزاعى لبقية بن

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير (ص٣١).
(٢) الإحياء (١/ ٤٤).

الوليد: «يا بقية، العلم ما جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ»[١]، وقال ابن تيمية: «فالصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين، فإنهم تلقوه عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين، ومن سلك سبيلهم»[٢].

ج- العلم بما ينقض الرأي المخالف للكتاب والسنة المطهرة.

د- معرفة الشبهات والعوامل التي أدت إليها، والرد عليها.

هـ- العلم بحال الخصم ومنزلته وظروفه وأدلته والوقوف على مصادره، والعلم بأدب المناظرة والحوار، فكل ذلك ضروري فيمن يتصدى لمسئولية الحوار.

والعلم لا ينال بالتمني والأمل، ولكن بالجد والعمل

قال أبو بكر الدينوري:

تمنيتَ أن تسمى فقيهًا مناظرًا بغير عناء والجنون فنون

فليس اكتساب المال دون مشقةٍ تلقيتها فالعلم كيف يكون

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في التأكيد على ضرورة العلم للمحاور: «وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة، وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجا[٣] قويا من علوج الكفار، فإن ذلك يضره، ويضر المسلمين بلا منفعة»[٤].

وقال أيضًا: «والعجب من قوم أرادوا نصر الشرع بعقولهم الناقصة، وأقيستهم الفاسدة،

---

(١) جامع بيان العلم (٢/ ٢٩).

(٢) الفرقان (ص٦).

(٣) «العِلْج الرجل الشديد الغليظ وقيل: هو كلُّ ذي لِحْية، والجمع أَعْلاج وعُلُوج ومَعْلُوجَى، والعِلْج الرجل من كفَّار العجم والجمع كالجمع والأُنثى عِلْجة، وزاد الجوهري في جمعه عِلَجة والعِلْج الكافر ويقال للرجل القويّ الضخم من الكفار عِلْج» لسان العرب (٢/ ٣٢٦).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٧٣).

فكان ما فعلوه ممرا جرأ الملحدين أعداء الدين عليه، فلا الإسلام نصروا، ولا الأعداء كسروا»[(١)].

٧. الاستقلالية في الكسب «الرزق الحسن»:

وهو الرزق الحلال الذي يكفيه حتى لا يظن في المحاور أنه يدعو من أجل المال، وهذا ما حكاه القرآن الكريم عن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام فما من نبي إلا وأكد على أن دعوته لا يبغي من ورائها حصادًا دنيويًا، قال الله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩]، وقال تعالى عن سيدنا هود: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]، وقال تعالى على لسان سيدنا محمد ﷺ: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ: ٤٧].

٨. توفر الغاية النبيلة من الحوار:

أما إذا كان المحاور غير مُسلم أصلًا كأن كان كتابيًا فهذا شرطه عدم الظلم لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. والمعنى: «أن الذين ظلموا منهم لا يجادلون بل ينتقل معهم إلى القتال[(٢)] أو أن الذين ظلموا منهم يجادلون مع الإغلاظ عليهم، ولا يكون الجدال معهم بالحسنى». وهذا مرده إلى المصلحة فمتى كان الجدال لزم ولو كان مع الإغلاظ والشدة، فإن لم يجد أو تكن المصلحة فيه أصلا فإنهم يقاتلون، وليس المقصود الامتناع عن الحوار مع الظالمين منهم مطلقا واتخاذه منهجًا مطردًا فهذا يخالف منهج النبي ﷺ، فقد حاور اليهود في المدينة مع ظلمهم وكتمانهم للحق، كما يخالف منهج علماء الأمة وسلفها الصالح الذين حاوروا وجادلوا الظلمة من أهل الكتاب.

---

(١) المرجع السابق (١/ ٥٣٧)، والفتاوى (٢٠/ ١٦٥).

(٢) انظر الطبري (٢١/ ١)، وابن كثير (٣/ ٤١٥).

المطلب الثاني
السمات الذاتية للمحاور

(أ) السمات الشخصية:

١. الموضوعية:

وتعني قدرة المتحدث على السلوك والتصرف، وإصدار أحكام غير متحيزة لعنصر أو رأي أو سياسة. أي العدالة في الحكم على الأشياء، والوقوف إلى جانب الحق، حتى لو لحق به الضرر. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، كما أنها تعني التحدث بلسان مصالح المستمعين، وليس بلسان المصالح الخاصة. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥] ، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

لهذا ننصح المتحدث بضرورة أن يضع المتحدث نفسه موضع مستمعيه، ويفكر من وجهة نظرهم، حتى يمكنه أن يتعرف على اهتماماتهم ومصالحهم، مما يساعدهم على إظهار التعاطف مع الآخرين، فيزداد قبولهم بوجهة نظره وتأييدهم، وفي الحديث عن يزيد بن أسد قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا يزيد بن أسد أتحب أن تدخل الجنة قال قلت نعم قال فأحب لأخيك ما تحب لنفسك**»(١)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يأخذ من أمتي خمس خصال فيعمل بهن أو يعلمهن من يعمل بهن؟**» قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: فأخذ بيدي فعدهن فيها ثم قال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**»(٢)، وعلى العكس إذا أظهر المحاور المشاعر المعادية، أو

---

(١) رواه الحاكم في الستدرك رقم (٧٤٢١)، (١٧/ ١٦٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وفي المعجم الكبير للطبراني رقم (١٨٠٨٣)، (١٦/ ١٠٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣/ ١٤).

(٢) رواه الترمذي باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس رقم (٢٤٧٥)، (٩/ ٧٦)، وابن ماجة باب الورع والتقوى رقم (٤٣٥٧)، (١٢/ ٤١٦)، والمعجم الكبير والأوسط للطبراني، وشعب الإيمان للبيهقي.

اللامبالاة، أو التثبت بمصالحه الذاتية، فلا شك سيقل الشعور بالتأييد من قبل مستمعيه لتحيزه، وعدم موضوعيته. وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...**»[(١)]، ومن ناحية أخرى فإن التعاطف مع الآخرين يجعلك ودودًا، ومجاملا، ومتحكمًا في مشاعر الغضب والانفعال التي تنفر المستمع، وتؤثر على مدى قابليته لاستقبال الحديث، والانفعال به.

٢. الصدق:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] إن المتحدث الصادق هو بالطبع الأكثر تأثيرًا في مستمعيه. والصدق يعني أن يعكس حديثك حقيقة مشاعرك وأفكارك وآرائك، أي أن يوافق مخبرك مظهرك، ويعني من ناحية أخرى مطابقة أقوالك لأفعالك وتصرفاتك. وحينئذ يعكس حديثك قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس، لأنك ستبدو للآخرين أنت نفسك لا شخصًا آخر، وسيتم حديثك بالتلقائية والطبيعية، فإذا تحدثت بطريقة هادفة، وتصرفت بطريقة طبيعية، فسيبدو حديثك أكثر إخلاصًا، وستتحدث بطريقة أفضل لأن الصدق داعٍ إلى البر لحديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله»[(٢)].

والصدق منجاة لصاحبة في كل ظروفه وأحواله ومن ظن أن الكذب ينجيه فالصدق له أنجى وفي حديث «الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار فانحدرت صخرة سدت باب الغار فقال بعضهم لبعض إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم

---

(١) رواه البخاري باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (١٠)، (١/ ٢٣)، ومسلم رقم (١٧١)، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (١/ ١٩٨)، وأبو داود باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٨٣)، (٧/ ٣٤٢)، والنسائي في السنن رقم (٨٧٠١)، (٥/ ٢١٤)، وغيرهم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] رقم (٦٠٩٤)، (٢٠/ ٢٤٧)، ورواه مسلم باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله رقم (٦٨٠٣)، (١٧/ ٣٥)، وأبو داود في سننه باب في التشديد في الكذب رقم (٤٩٩١)، (١٤/ ٣٢٤)

أنه قد صدق فيه»[١] فالمحاور أحوج ما يكون إلى توفيق الله ونجاته من خبث من يمكر من المحاورين.

والصدق طمأنينة للمتحدث وللمستمع بل له فيه أعظم الأثر، ويؤيد ذلك ما ورد في حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»[٢] وهناك دراسات عديدة تبين تأثير صدق المتحدث، ومن الأبحاث التي أجريت حول هذه الصفة، تبين أن مضمون الرسائل الموجهة من مصادر يقل تصديق المستقبل أو المستمع لها، أو لا يصدقها، ينظر إليها المستقبل على أنها منحازة، أو غير موضوعية، على عكس النظرة التي ينظر بها إلى مضمون الرسائل الموجهة إليه من مصادر يصدقها، وأن هذا التصديق له تأثير كبير على آراء المستقبل، وهذا يدلنا على أنه ليس دون الصدق خير ويؤيد ذلك قول عمر بن الخطاب في خطبته «أفلح منكم من حفظ من الهوى والطمع والغضب وليس فيما دون الصدق من خير، من يكذب يفجر ومن يفجر يهلك...»[٣]، بل عده أبو بكر الصديق ﷺ الأمانة فقال في خطبته: «إن أكيس الكيس التقوى وأحمق الحمق الفجور ألا وإن الصدق الأمانة والكذب الخيانة...»[٤]

كما تبين من الأبحاث، أن تصديق المستقبل يؤثر على دوافعه نحو قبول ما ينتهي إليه المرسل من استنتاجات.

٣. الوضوح:

ما بعث الله تعالى نبياً إلا بلسان قومه وباللغة التي يفهمونها، قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ** ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولكي تكون متحدثًا ناجحًا يجب أن تكون قادرًا على التعبير عن أفكارك بوضوح، وأن تكون لغتك بسيطة، وبلسان قومك أو من تدعوهم،

---

(١) رواه البخاري باب حديث الغار، رقم (٣٤٦)، (١٢/ ١٨١).

(٢) سنن البيهقي، (٥/ ٣٣٥).

(٣) رواه البيهقي في السنن (٣/ ٢١٥).

(٤) رواه البيهقي في السنن (٦/ ٣٥٣).

ومادتك منظمة ومتسلسلة منطقيًا، وكلماتك واضحة وغير معقدة، وفي الأثر عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[١] وإذا استخدمت مصطلحات دقيقة غير واضحة للمستمع، فيجب شرحها وتبسيطها أثناء الحديث، وذلك لتتجنب أخطار سوء الفهم أو التفسير. ويعني الوضوح أيضًا التكلم بطريقة واضحة. أي النطق الواضح، وإن استدعى الأمر يكرر مرتين أو ثلاثة حتى يمكن للمستمع أن يسمع ويفهم كلماتك، وفي الحديث عن أنس عن النبي ﷺ «أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا»[٢]، وأن تتحدث مباشرة إلى المستمع باهتمام ويقظة، حتى تعطي لمستمعك انطباعا بأنك مهتم به وفاهم لما يحدث حولك ومدركا لما تقول.

ولضمان الفهم الجيد من قبل مستمعك، ولضمان حسن الفهم، تجنب أيضًا استخدام الجمل الطويلة الممتدة، التي تسبب الحيرة للمستمع. واستخدم بدلا من ذلك الجمل القصيرة والموجزة أيضًا، فخير الكلام ما قل ودل، فبكلمات قليلة يمكنك أن تقول الكثير، وفي الحديث عن جابر بن سمرة قال كنت أصلي مع رسول الله ﷺ: «فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا»[٣] فإذا أردت أن تكون واضحًا ومفهومًا وفعالا فأوجز فالأقوال كأشعة الشمس، كلما كانت أقصر كانت أشد إحراقا.

٤. الدقة:

وتعنى من ناحية التأكد من أن الكلمات التي تستخدمها تؤدي المعنى الذي تقصده بعناية، ولذلك فأنت محتاج إلى حصيلة لغوية كبيرة تمكنك من اختيار الكلمات ذات المعنى الدقيق، لتلبية متطلبات حديثك، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**وأوتيت جوامع الكلم**»[٤].

---

(١) رواه البخاري موقوفا، باب من خص بالعلم قوما رقم (١٢٧)، (١/ ٢٢٩)، ورواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى باب أتريدون أن يكذب الله ورسوله، رقم (٤٩٧)، (٢/ ٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه، رقم (٩٥) (١/ ١٧٨) وغيره.

(٣) رواه مسلم باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم (٢٠٤٠) (٥/ ٤٠١)، وغيره.

(٤) رواه البخاري بصيغة «بعثت» باب المفاتيح في اليد، رقم (٧٠١٣)، (٢٣/ ١٦٦)، ورواه مسلم رقم

ومن ناحية أخرى، تعنى دقة المعلومات التي تقدمها وصحتها، فعندما تتحدث إلى جمهورك تأكد أن مادتك دقيقة، وفي الحديث «**لا تشهد بما لم يعه سمعك ويفقهه قلبك**»[١]، وإذا لم تكن متأكدًا لا تخمن، فالأفضل لك حذف فقرة من حديثك، عن أن تورد معلومة خاطئة تعرضك لمخاطرة مراجعة الغير، وتفقدك في الوقت نفسه مصداقيتك. وأثناء الحديث من الأفضل لك عدم الإجابة عن سؤال لا تعرف جوابه بالتحديد، أو ترجئ الإجابة عليه لوقت آخر، عن أن تقدم إجابة قد لا تكون متأكدًا منها، أو خاطئة، قال علي بن أبي طالب ﷺ: «وأبردها على كبدي إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول الله أعلم»[٢].

٥. الحماس:

لا يكفي أن تعرف كل شئ عن موضوعك، وأن تؤمن به، ولكن ينبغي أن تكون تواقًا للحديث عنه، فالحماس يجعل المتحدث أكثر حيوية وحرارة في حديثه، أو أكثر ديناميكية، فعن جابر ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه ينذر جيشا يقول صبحكم ومساكم»[٣]، والمتحدث الذي يبدو في الظرف الاتصالي حيويًا ونشيطا، يعتبر على درجة عالية من التصديق، بخلاف الذي قد يبدو متعبًا، فإدراك الجمهور لتلك الخاصية وهو يتفاعل مع المتحدث من العوامل المؤثرة على فاعلية الحديث.

٦. القدرة على التذكر:

وتعنى حضور الذهن أثناء الحديث، وذلك لا يظهر الفتور فيما تقدمه للناس، بل حاول أن تضيف دائمًا معلومات جديدة أثناء الحديث، من خلال تذكر ما سبق أن قرأته، أو شاهدته، أو استمعت إليه. كما أن امتلاك هذه القدرة يغني المتحدث عن الاستعانة بالمذكرات، أو الأوراق أثناء الحديث. وهناك طرق عديدة لتنمية هذه القدرة كاستخدام الاختصارات، أو الرموز، للدلالة على الأفكار الرئيسة.

=

(١١٩٥)، (٣/ ٤٢٨)، وفي رواية «أعطيت» وغيرهم.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم (٤٨٥٨) (٤/ ٢٢٢).

(٢) فيض القدير (١/ ١٢٩).

(٣) كتاب المنتقى من السنن لابن الجارود باب الجمعة رقم (٢٩٧) (١/ ٨٣).

ويلاحظ أن امتلاك الذاكرة القوية يساعد المتحدث على تذكر أسماء الشخصيات التي يتعامل معها، والظروف التي صاحبت ذلك. ولا شك أن تذكر أسماء الناس الذين نقابلهم، وألقابهم، وأسمائهم، له وقع كبير على نفسية المتحدث، ويزيد الروابط، ويقوي المعرفة.

٧. الاتزان الانفعالي:

ويقصد به أن يظهر المتحدث انفعاله بالقدر الذي يتناسب مع الموقف، وأن يكون متحكمًا في انفعالاته. فمثلًا إذا واجه تهكمًا أو اعتداء من جانب أحد المستمعين، فلا يواجهه بالغضب، وإنما بالحلم والعفو، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ، وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال لرسول الله ﷺ أوصني قال: «**لا تغضب**». فردد مرارا قال: «**لا تغضب**»[(١)] وكذلك القدرة على امتصاص غضب المستمعين، ومعاملاتهم معاملة أحسن. كما يعني الاتزان الانفعالي السيطرة على مشاعر العصبية الناتجة عن الخوف الشديد من مواجهة الجمهور، أو القلق، أو التوتر، أو الخجل، أو الحماس الزائد. فعدم السيطرة على انفعالاتك، يؤثر على عملية الحديث ذاتها، فقد يجعل قلبك يدق بعنف، أو ترتعش أطرافك أو تعرق، وقد يجعل ركبتيك ترتعش، وتتأثر بالتالي نبرات الصوت، ودرجة وضوحه، فلا يصل صوتك واضحًا إلى المستمع، وإنما مرتعشًا وفاترًا وضعيفا، كما يقلل هذا الشعور من قدرتك على التفكير الواضح، وعلى التركيز أثناء الحديث. ولذلك ينبغي على المتحدث السيطرة على مشاعر العصبية والمحافظة على اتزانه الانفعالي، لضمان حسن قيادته للحديث، ولتوفير الفرصة للتأثير الفعال.

وأحسن طريقة للتخلص من السمات غير الطبيعية للكلام، والناتجة عن عدم الاتزان الانفعالي وما يترتب عليه من توتر وشد عصبي هي اعتياد الاسترخاء. وذلك بأخذ نفس عميق والاحتفاظ به لفترة ثم إخراجه بالطريقة المعتادة، أو بطريقة أكثر عمقا من المعتاد، فهذا يساعدك على استرخاء عضلاتك واستعادة هدوئك.

---

(١) رواه البخاري باب الحذر من الغضب رقم (٦١١٦)، (٢٠/ ٢٧٧)، وغيره.

٨. المظهر الجيد:

يعكس مظهر المتحدث مدى رؤيته لنفسه، كما يحدد الطريقة التي ينظر بها الآخرون إليه، ويشكلون بها أحكامهم عنه، حتى قبل أن يتكلموا، فمن خلال الأثر البصري العام الذي يحدثه المتحدث لدى الجمهور عند رؤيتهم له، تتكون لديهم صورة ذهنية محددة، وكما قال الشاعر: ألم تر أن العين للقلب رائد فما تألف العينان فالقلب آلف[١]

فإذا كان مظهرك لائقا، واستحسن مستمعوك ما يرونه منك، فإنك تكون قد حققت بداية طيبة، أما إذا لم يحس الجمهور بذلك، تكون كمتحدث قد وضعت عقبة في طريقك. ويعني المظهر العام مجموعة من الجوانب هي:

- النظافة والأناقة الشخصية.
- الملبس والمظهر المناسب للحالة.
- الصحة النفسية والبدنية.

وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر**»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[٢].

وتمثل هذه الجوانب مجموعة الصفات الخارجية التي تعكس مظهر المتحدث، وترجع أهميتها إلى أنها أحد المداخل الرئيسية للنفس البشرية، فالناس عادة يأخذها المظهر وتنجذب إليه، ولهذا ينبغي على المتحدث أن يناضل دائمًا لكي يحسن كل شئ يراه الجمهور منه. والنظافة والأناقة الشخصية شيء يستطيعه كل فرد، من خلال العناية بنظافة الجسم، والأسنان، والملابس، وغير ذلك مما يثمر جمال الظاهر. أما الباطن فضروري، والعناية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٢/ ٢٢٧)، أضواء البيان للشنقيطي (٦/ ٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه باب تحريم الكبر وبيانه رقم (٢٧٥) (١/ ٣٢٧)، والترمذي باب ما جاء في الكبر رقم (٢١٣٠)، (٨/ ٩) والإمام أحمد رقم (٣٧٩٨)، (٦/ ٣٣٨)، والبيهقي وغيرهم.

بالصحة النفسية، فكثير من المهن والأعمال، تحتاج لأن نمنح الأمان والاستقرار والهدوء لمن يتعاملون معنا، ولا نستطيع ذلك إذا كنا نحن أنفسنا كقائمين بالاتصال مفتقدين لهذا.

وإذا كنا نستطيع بقدر من المعاناة العناية بصحتنا النفسية، والبدنية، ومظهرنا العام إلا أن هناك عوامل أخرى تساعدنا على توفير متطلبات المظهر العام، وهي:

- موافقة الملابس لبنيتنا الجسمية. أي أن نختار الملابس التي تتناسب وطول المتحدث، ووزنه، ولون بشرته، والصفات الجسمية الأخرى.

- ملاءمة اللون. فنختار الملابس التي تنسجم ألوانها. أي ينسجم لون القميص، مع لون الجورب، مع بقية الملابس؛ وذلك حتى لا تظهر أمام الجمهور وأنت ترتدي ملابس تشكل تشتيتًا براقا لهم أثناء الحديث.

- مناسبة المظهر للموقف. كما أن لكل مقام مقالا، أيضًا لكل مقام مظهره المناسب، فالذي يخطب الجمعة، أو يلقي محاضرة في مركز تنمية القرية، إذا ظهر بملابس السهرة قد يحول مظهره بينه وبين الجمهور. وملابس مناسبات العزاء غيرها في الأفراح وهكذا.

أما البشاشة، فترجع أهميتها إلى أنها تخلق جوًا اجتماعيًا بين المتحدث ومستمعيه ملؤه التعاطف والمشاركة والرضاء والحب والصداقة والألفة. كما أنها تعبر عن الأدب والذوق وحسن التربية، وتؤثر في المستمعين، إذ تبعث في نفوسهم الراحة والسرور، وتفصح بالنسبة للمتحدث عن انفراج الأسارير، والانشراح والإقبال على الحياة بوجه عام. ولذلك فلها فعل السحر في جذب الناس إلى المتحدث، وعدم النفور منه فينجذبون إليه، وكلهم تفاؤل وإحساس مرهف بالبهجة والحياة ولذا كان النبي ﷺ أكثر الناس تبسما كما ثبت في حديث عبد الله بن الحارث قال: «ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ»[1].

فالمظهر العام سمة مهمة تستحق منا أن نوليها عنايتنا عندما نلقي حديثًا ما، إنه لا يجعل

---

(١) رواه الترمذي في السنن باب في بشاشة النبي ﷺ رقم (٤٠٠٢)، (١٣/ ٢٣٢)، وفي الشمائل باب ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ رقم (٢٢٥)، (١/ ٢٥٨)، الإمام أحمد في المسند رقم (١٧٧٠٤) (٢٩/ ٢٤٥)، والبيهقي وغيرهم.

الجمهور ينجذب نحو المتحدث وحسب، ولكنه يجعلنا أيضًا نشعر بمزيد من الثقة في أنفسنا، حيث إننا سنكون واثقين تمامًا من ظهورنا أمامهم بمظهر طيب.

٩. القدرة على التعبير الحركي:

حينما نتحدث إلى الآخرين لا نستخدم فقط مقدرتنا على استخدام الرموز اللغوية لنقل أفكارنا وآرائنا ومشاعرنا وما لدينا من معلومات إلى المستمع أو الجمهور، وإنما نستخدم بالإضافة إلى ذلك مستويين آخرين للتعبير، يدعمان المعاني التي ينقلها المستوى اللغوي، وفي كثير من الأحيان يضيفان معاني أخرى أعم وأكثر وأشمل من معاني الاستخدام اللغوي للرموز. وهذان المستويان هما:

- المؤثرات الصوتية «سيأتي الحديث عنها عند الحديث عن السمات الصوتية».
- السلوكيات الحركية والأوضاع الجسمية المختلفة.

السلوكيات الحركية لغة للتعبير من زاوية المستمع وهو يفك كود «شفرة» هذه اللغة، ويتفهم دلالاتها ومعانيها. ومن زاوية المتحدث فالإشارات والحركات وتغيير الأوضاع الجسمية علامات مميزة يستخدمها المتحدث بالتزامن مع اللغة المنطوقة أو كجزء منها. ونقصد هنا الإشارات والحركات الاختيارية ذات الوظيفة الاتصالية. أما الإشارات والحركات الاضطرارية كخلجة العين، والرعشة مثلا، فهذه بعيدة عن اهتمامنا وفي الحديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه «كان مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة وفي يد النبي ﷺ عود يضرب به بين الماء والطين، فجاء رجل يستفتح فقال النبي ﷺ افتح له وبشره بالجنة فذهبت فإذا أبو بكر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر فقال افتح له وبشره بالجنة، فإذا عمر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر وكان متكئا فجلس فقال افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه. فذهبت فإذا عثمان ففتحت له وبشرته بالجنة فأخبرته بالذي قال. قال الله المستعان»[1].

(١) رواه البخاري في الصحيح باب نكت العود في الماء والطين، رقم (٦٢١٦)، (٢٠/ ٤٢٤).

ومن أمثال هذه السلوكيات:

وضع الجلوس. فوضعك أثناء الجلوس يحدد ما إذا كنت متحمسًا، أو متعبًا، أو مهتمًا أو غير مهتم، فعندما تتحدث وأنت جالس متكئا أو مستندًا إلى الحائط ومغمض العينين مترهلا متدلي الرأس وأنت تستمع إلى تعليقات أو أسئلة جمهورك فهذا يعنى عدم اهتمامك.

ومن الحركات الجسمية أيضًا الإشارات باللسان أو الخد أو العنق أو الرأس أو اليد أو الأصبع أو اليد مع الجبين واليد مع اليد وكلها لنقل دلالات محددة إلى الجمهور.

وهناك لغة العيون. النظرات المؤثرة إلى الآخر، فعندما نتحدث ننظر في عين المتحدث أو لا ننظر ونعطي انطباعًا بعدم الاهتمام، وعندما نركز النظرات على عيني أو وجه الشخص الآخر يحدث اتصال عن طريق العيون، تنتقل عبره معاني كثيرة ومتعددة تعمق الاتصال، وتقوي مغزاه، إذ تنقل عن طريقها مشاعر الود، أو التأييد أو الموافقة أو الرضا أو الحيرة والاضطراب، أو الارتياح، أو الغضب، أو التنبيه لانتهاء الحديث أو الرغبة في استمراره.

فالحركات الجسمية والإيماءات المصاحبة للحديث المنطوق تعد عملًا إضافيا يحفظ للمشاركين في الاتصال انشغالهم، بل إنها تدعم أوضاع الكلام وحالاته، وتؤمن له نظامه، وتحفظ له إيجابيته. يقول أحد العلماء: «تخضع المنطوقات بالطبع لضغوط وضرورات لغوية. وأن الأشخاص الحاضرين في موقف اجتماعي، ينبغي لهم في كل لحظة أن يقوموا بعمل إضافي ويحفظ هذا العمل للمشاركين في الكلام انشغالهم به. وينبغي للمنطوقات أن تقدم في كساء من الحركات الجسمية الوظيفية، أي الحركات التي تدعم حالات الكلام وأوضاعه، والتي تؤمن له نظامه، وتحفظ له نظمه الإيجابية البسيطة».

ويقول بعض الفلاسفة: «يستخدم المتكلمون طائفة من العلامات الشكلية التي يشيرون بها إلى التغير فيما يتكلمون فيه. ويمكن أن تعد هذه العلامات مؤشرات إلى تغير المحور يستخدمها المشاركون في المحادثة. فنظرة المتكلم إلى محاوره، وتفرسه فيه، واستخدامه بعض الحركات الجسمية الدالة على تغييره خطابه، لها جميعًا أهمية في تغيير المحاور».

فالسلوكيات الحركية إذن، قناة اتصال خطيرة. وهي بلا شك جزء مكمل للنشاط

الاتصالي اليومي الذي يمارسه كل فرد، وتحتاج إلى جهد كبير لتنميتها وتطويرها باعتبارها تمثل حوالي ٦٠٪ من وسائل الاتصال بين الناس، بينما تمثل نبرة الصوت ٣٠٪، والكلمات ١٠٪ فقط.

(ب) السمات الصوتية:

إن صوتك مهم بالنسبة لنجاحك كمتحدث. وإذا كنا لا نستطيع أن نغير أصواتنا إلا أننا يمكننا تغير طريقة النطق، من خلال التحكم في الصوت أو رفعه أو خفضه وضبط نغمته وفقا للظروف الخاصة.

وأول خطوة للتحكم في الصوت، هي أن ندرك العوامل التي تؤثر في تحديد سماتنا الصوتية، وتوجد عوامل عديدة خاصة بالنطق، يتوقف عليها قدر ما نحقق من نجاح. وأهم هذه العوامل:

١. طريقة النطق:

يعتمد النطق على الصوت الذي يعطي للحروف الأبجدية أو مجموعات الحروف. ويعني النطق الصحيح الالتزام بقواعد النحو والصرف. والالتزام بالنطق العام السائد للكلمات، والمتعارف عليه.وفي الأثر «ألا إن العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»[1] كما يشير النطق إلى طريقتك الخاصة في الضغط على الكلمات والمقاطع، لإعطاء تأثيرات معينة.

ولذلك تعد طريقة النطق من العوامل المهمة لنجاحك كمتحدث، حيث سيتوقف عليها مدى فهم المستمع لما تقول، ومدى إدراكه لما تحمله كلماتك من دلالات. ومن المفيد في هذا المجال لتحسين طريقتك في النطق تجربة الاستماع إلى نفسك، لتتعرف على لهجتك، وطريقة تكوين الحروف المتحركة، وطريقتك في النطق ومقامات الصوت. وذلك عن طريق تسجيل صوتك على مسجل، ودراسته كمحاولة لتجنب عادات النطق التي تتسم باللامبالاة والإهمال.

٢. وضوح الصوت:

وهو أدب دعا الإسلام إليه، روى ابن سعد بسنده عن «الشفاء بنت عبد الله وقد رأت

---

(١) المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم، باب سعيد الأفغاني، (١/ ٨٤).

فتيانا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدا فقالت ما هذا ؟ فقالوا نساك فقالت كان والله عمر إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع وهو الناسك حقاً»[١]، «وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: قلت لأعرابي من أشعر الناس؟ قال الذي إذا قال أسرع وإذا أسرع أبدع وإذا تكلم أسمع وإذا مدح رفع وإذا هجا وضع»[٢].

والوضوح بمعنى أن يتمكن المستمع من سماع ما يقوله المتحدث، وفي الاجتماعات الضخمة يجب أن يتأكد من أن جميع الحضور يستطيعون سماع ما يقوله بوضوح، وإلا فيستخدم مكبرات للصوت، ولا مانع من أن يسأل المستمعين في بداية حديثه، إن كانوا يسمعونه أم لا. ولا يعني هذا أن يتحدث المتحدث بصوت جهوري عالٍ بدرجة واحدة، لأنه إذا استمر على وتيرة واحدة ومستوى واحد لصوته مال الجمهور إلى النوم، ولهذا لا بد من التنويع في مستويات الجهارة والانخفاض، الانحباس والانغلاق، والسرعة والبطء، والرقة والفخامة، حتى تتمكن من التعبير الدقيق عن مشاعرك وميولك وانطباعاتك.

٣. سرعة الصوت:

السرعة التي تتكلم بها عامل مؤثر في فعالية الحديث. فالتحدث بسرعة كبيرة يجعل المستمع لا يتابعك كما تود، وقد يتوقف عن سماعك، وخصوصًا إذا كانت السرعة طوال الوقت، لصعوبة الفهم، ولكن التنويع في السرعة، يساعدك على تأكيد الأهمية لما تقوله، بأن تبطئ من سرعتك لتأكيد كلمات معينة، ولذلك فالمتحدث الجيد، هو الذي تتوافر لديه مهارة تنويع سرعة الحديث وفقا لأهمية ما يقوله، بل لا حرج أن يكرر اللفظ ثلاثا حتى يسمع ولما دخل النبي ﷺ خيبر قال: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» قالها ثلاثا[٣]. وكان من دأبه إذا تكلم بشيء أعاده ثلاثا حتى يُفهم عنه ﷺ.

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، باب ذكر استخلاف عمر رحمه الله، (٣/ ٢٩٠).

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، باب اللفظ والمعنى، (١/ ٣٨).

(٣) رواه مسلم في الصحيح باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها، رقم (٣٥٦٣)، (٩/ ٢٠١).

٤. الوقفات:

والوقفات هي مواضع الوقوف أثناء الحديث، وقد تكون في بداية الحديث لجذب انتباه الحضور، وقبل وبعد النقاط الهامة وعند نهاية كل جملة مفيدة، كاستراحة للتنفس، وأحيانًا نتوقف قبل أو بعد الكلمة، أو قبل التصريح بالنقطة المهمة في الموضوع، لنعطي تأكيدًا معينًا، وتسمي هذه وقفة ناقصة، لأنها تعني أن للكلام بقية. أما الوقفة القاطعة، وتأتي في نهاية الكلام، للدلالة على إنهاء الكلام، وينبغي استخدام الوقفات في مكانها الصحيح حتى نستطيع المساعدة في تحديد الانتباه، وإثارة الاهتمام، كما توفر من ناحية أخرى للمستمع الفرصة للفهم والاستيعاب، ولكن يشترط لذلك عدم التكلف والافتعال بوقفات كثيرة بين كل كلمة، أو سلسلة من الكلمات حتى لا تفقد متابعة مستمعيك.

(ج) السمات الإقناعية:

الإقناع هو كسب تأييد الأفراد لرأي أو موضوع أو وجهة نظر معينة، وذلك عن طريق تقديم الأدلة والبراهين المؤيدة لوجهة النظر، بما يحقق الاستجابة لدى الأفراد.

والمقدرة الإقناعية من السمات الأساسية للمتحدث المؤثر، وتتضمن مجموعة من المهارات أو السمات هي:

١. القدرة على التحليل والابتكار:

وتعني أن يكون المتحدث قادرًا على إدراك العلاقات بين العناصر المكونة لفكرته، وأن يكون قادرًا على تحليل هذه العلاقات، وذلك ليستطيع ابتكار مزيد من العلاقات والتوصل إلى معان معينة تؤيد فكرته، وتحقق مزيدًا من الإقناع، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ [النساء: ٨٣].

٢. القدرة على العرض والتعبير:

فأسلوب العرض يلعب دورًا كبيرًا لجذب الانتباه، ولكن يجب مراعاة طبيعة الموقف، والموضوع الذي يتم عرضه، حتى يظل أسلوب العرض وسيلة تساعد على الإقناع ولا

تتحول إلى هدف في ذاتها، ولنا في القرآن الأسوة قال عنه تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

وفي هذا المجال فإن المتحدث يمكنه أن يبدأ بطرح عدد من التساؤلات التي تغطي إجاباتها الموضوع المراد نقله للأفراد وإقناعهم به، وهذا الأسلوب يتيح للمستمعين الفرصة للتفكير والمشاركة في الحديث، وعند اتباع هذه الطريقة فإن على المتحدث أن يوجز أولا بأول النتائج التي تم التوصل إليها، ليتكون لدى المستمع في نهاية الحديث خلاصة لهذه النتائج والتي يجب أن تتطابق مع الأفكار التي تهدف إلى إقناع الأفراد بها.

٣. القدرة على الضبط الانفعالي:

لأن انفعال المتحدث لتعبير معين، أو لنقد وجه له، قد يفقده قدرته على التركيز وربما يدفعه إلى التصريح بأشياء ليس من المستحب ذكرها، وبالتالي فإن افتقاد هذه الصفة يعد أحد العوامل التي تؤثر في إقناع المستمعين.

٤. القدرة على تقبل النقد:

فالنقد أحد الظواهر الأساسية التي تبرز عند نقاش بعض الموضوعات وتبادل وجهات النظر، ويعني حالة عدم الاقتناع برأي أو فعل معين، ومحاولة تفنيد هذا الرأي لإثبات عدم صحته، أو توجيه الفرد إلى أنه قد تصرف على نحو يخالف ما كان يجب القيام به، ولنا في الفاروق عمر القدوة «حين نادى: أيها الناس رحم الله من أهدى إلي عيوبي»[(١)].

ويرجع السبب في توجيه النقد للمتحدث إلى عوامل منها:

- عدم قدرة المتحدث على عرض الموضوع بطريقة جيدة تكسبه تأييد الآخرين.
- عدم اعتماده على الحقائق والمعلومات.
- حجب الحقائق والمعلومات المتعلقة عن أفراد الجمهور.

---

(١) سنن الدارمي باب وَسالة عباد بن عباد الخواص الشامي (١/ ١٦٦) .

- أسباب شخصية خاصة بالمنتقد تجاه المتحدث.
- ميل بعض المستمعين إلى النقد لذاته، بصورة تشغلهم عن الموضوع أو العمل الأصلي.

وفي هذه الأحوال فلا بد للمتحدث من أن تتوافر له القدرة على فهم الدوافع والأسباب الكامنة وراء النقد، والقدرة على تقبل انتقادات الغير، والاستفادة منها في تطوير أدائه، انطلاقا من إيمانه بتكامل الآراء، وصعوبة الكمال، وأيضًا القدرة على العرض الموضوعي لمعلوماته وأفكاره، وعدم الوقوف موقف الرفض من النقد في حد ذاته، وأن يعتمد على المعلومات والآراء في بناء آرائه، وفي نقده لأراء الغير[1].

(د) السمات الاستماعية:

١. الانتباه وحسن الإصغاء:

إن من أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه، فإن إقباله على محدثه يكون بالإصغاء إليه بالأذن وطرف العين وحضور القلب وإشراقة الوجه وأنسه بحديثه. والانتباه للمتحدث يعنى توجيه طاقات وقدرات الفرد العقلية والجسدية نحو الاستماع. فلكي تكون مستمعا جيدا يجب أن تحشد كافة انتباهك للمتحدث. وذلك يتطلب جهدا ذهنيا للتركيز. ويتطلب الآتي:

- التفرغ لمتحدثك تماما، فعامله كصديق وأظهر بأنك ترغب في الإنصات، وأشعره بأنك مهتم بما يقول، وذلك من خلال مشاركتك وتعبيرات وجهك وتصرفاتك التي توحي بأنك مهتم بالاستماع.
- تجنب التشويش على عملية الاستماع بالانصراف عن المتحدث، بالنقر بالأصابع أو النظر في أوراق أمامك، أو النظر إلى لوحة معلقة أو الرسم أو ما شابه ذلك.
- تلافي تأثير الاتجاهات السلبية عن المستمع لدى المتحدث.

وقد وردت بعض الآثار عن سلفنا الصالح في الحض على حسن الاستماع، والتي منها:

---

(١) مهارات الإتصال للإعلاميين والتربويين الدعاة للأستاذ الدكتور/ محمد منير حجاب (ص٩٦: ١٠٦).

قصة محاورة عتبة بن ربيعة لنبينا محمد ﷺ حين جاء يعرض عليه مطالب قريش، فقال له: «**قل يا أبا الوليد، أسمع**» حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم. قال: «**فاستمع منى**»(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي علي ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث»(٢).

وقال عمرو بن العاص ﷺ: «ثلاثة لا أملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رحلي»(٣).

وقال الحسن البصري: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه»(٤).

وقال معاذ بن سعد الأعور: «كنت جالسا عند عطاء بن أبي رباح فحدث رجل بحديث، فعرض رجل من القوم في حديثه، قال: فغضب وقال: ما هذه الطباع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به فأريه كأني لا أحسن شيئا»(٥).

وقال المدائني: «أوصى خالد بن يحيى ابنه، فقال: يا بني إذا حدثك جليسك حديثا فأقبل عليه، وأصغ إليه، ولا تقل: قد سمعته، وإن كنت أحفظ منه فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك»(٦).

وقال إبراهيم بن الجنيد: «قال حكيم لابنه: «يا بني تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن

---

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٩٣)، كتاب الإعتقاد للبيهقي باب جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به (١/ ٢٨٢)، ورواه أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة باب أفرغت يا أبا الوليد (١/ ٢١٣)

(٢) عيون الأخبار (١/ ٣٠٧).

(٣) عيون الأخبار (١/ ٣٠٦).

(٤) المنتقى (ص٧٢).

(٥) روضة العقلاء (ص٧٢).

(٦) بهجة المجالس لابن عبد البر (١/ ٤٣).

الكلام، فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه والنظر، وترك المشاركة بحديث أنت تعرفه»[١].

وقال ابن المقفع: «إذا رأيت رجلا يحدث حديثا قد علمته، أو يخبر خبرا قد سمعته، فلا تشارك فيه، ولا تتعقبه عليه حرصا على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإن ذلك خفة، وسوء أدب وسخف»[٢].

وقال أيضا: «من الأخلاق التي أنت جدير بتركها إذا حدث الرجل حديثا تعرفه ألا تسابقه، وتفتحه عليه وتشاركه، حتى كأنك تظهر للناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم، وما عليك إلا أن تهنئه بذلك، وتفرده به، وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرة»[٣].

وأنشد الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تشارك في الحديث أهله وإن عرفت أصله وفرعه

وقال أيضا: «وإذا وقع له شئ في أول كلام الخصم، فلا يعجل بالحكم عليه؛ فربما كان في آخر كلامه ما يبين أن الغرض بخلاف الواقع له، فينبغي أن يتثبت إلى أن ينقضي الكلام، وبهذا أدب الله تعالى نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤]، ويكون نطقه بعلم وإنصاته بحلم، ولا يعجل إلى جواب، ولا يهجم على سؤال، يحفظ لسانه من إطلاقه بما لا يعلم، ومن مناظرته فيما لا يفهم، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع».

ثم قال: «وينبغي أن يكون كل واحد من الخصمين مقبلا على صاحبه بوجهه في حال مناظرته، مستمعا إلى كلامه إلى أن ينهيه، فإن ذلك طريق معرفته، والوقوف على حقيقته، وربما كان في كلامه ما يدل على فساده، وينبه وعاره، فيكون ذلك معونة له على جوابه».

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٣٠).

(٢) الأدب الصغير والكبير (ص ١٣٦).

(٣) المرجع السابق (ص ١٦٨).

إلى أن قال: «وليتق المناظر مداخلة خصمه في كلامه، وتقطيعه عليه، وإظهار التعجب منه، وليمكنه من إيراد حجته، فإنما يفعل ذلك المبطلون، والضعفاء الذين لا يحصلون»[١].

وقال إمام الحرمين في آداب المجادل: «وعليهما جميعا أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه في نوبته، وإن كان ما يسمعه منه شبه الوسواس، لأنهما متساويان في حق المناوبة، ومن لم يصبر منهما لصاحبه فقد قطع عليه حقه، ومتى لم يصبر عليه خصمه، بل داخله بالاعتراض، أو الجواب في نوبته احتمله ووعظه، فإن أصر عليه قطع مكالمته».

ثم قال: «وعلى كل منهما أن يقبل على خصمه الذي يكلمه بوجهه في خطابه، المتكلم في كلامه، والمستمع في استماعه، فإن التفت أو أعرض عنه في الاستماع أو الخطاب وعظه، فإن لم يقبل قطع مناظرته، لأن ترك الإقبال وحسن الاستماع يشغل قلب المتكلم والمستمع، فتنقطع عليه مادة الفهم والخاطر»[٢].

ويحكى أن عبد الملك بن مروان استأذن على أمير المؤمنين معاوية في الدخول، فأذن له، ثم سلم عليه وجلس، وبعد أن فرغ من حديثه قام وانصرف، فقال معاوية: «ما أكمل أدب هذا الفتى!». فقال بعض الحاضرين: «نعم يا أمير المؤمنين، لقد أخذ بأخلاق أربعة، وترك أخلاقا أربعة: أخذ بأحسن البشر إذا لقي، وبأحسن الحديث إذا حدث، وبأحسن الاستماع إذا حُدث، وبأحسن الوفاء إذا وعد، وترك مزاح من لا يثق بعقله، وترك مجالسة من لا يرجع إلى الحق، وترك مخالطة من لا أدب عنده، وترك من القول والعمل كل ما يعتذر منه»[٣].

وقال الشاعر:

إن أنت جالست الرجال ذوي النهى ... فاجلس إليهم بالكمال مؤدبا

واسمع حديثهم إذا هم حدثوا ... واجعل حديثك إن نطقت مهذبا[٤]

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣١-٣٥).

(٢) الكافية في الجدل (ص٥٣٣-٥٣٤).

(٣) عيون الأخبار (١/ ٣٠٧).

(٤) المرجع السابق (١/ ٣٠٧).

٢. استخدام التقنيات الخاصة بالتركيز[١]:

كأن يتخيل المستمع نفسه في مكان المتحدث محاولا أن يرى العالم بعينيه ليتمكن من فهم واستيعاب ما يقوله، أو استخدام أسلوب المحاورة مع المتحدث لتثبيت الأفكار، أو استخدام أسلوب الأسئلة الذاتية، كأن يسأل نفسه أسئلة حول مجرى الحديث، مثل ما الفكرة الرئيسية لهذا الحديث؟ ماذا يقصد المتحدث؟ أو استخدام عبارات الموافقة والتأكيد لتشجيع المتحدث على الاستمرار. وأحيانا في هذا المجال تستخدم الغمغمات الدالة على الموافقة، أو حركة الرأس، أو يسأل أسئلة استيضاحية، مثل أفهم جيدا ما تقول، ولكن ماذا تقصد بكذا؟ أو يراجع المتحدث ويطلب منه تكرار ما يقول، أو تكرار نقطة محددة في سياق الحديث.

(١) مهارات الإتصال أ. د. محمد منير حجاب (ص٣٩).

المطلب الثالث

الآداب التي يجب توافرها في المتحاورين

هناك مجموعة من الآداب اللازمة لكل من المتحاورين أو المتناظرين[١] ملخصها فيما يلي:

١. حسن القصد:

الإخلاص شرط في جميع الأعمال، فلا بد أن يقصد من المناظرة وجه الله، وطلب الحق، والنصيحة للمسلمين.

وهذا أول شيء يجب أن يضعه المتناظران نصب أعينهم، وأن لا يُغفلوا ذلك، لأنه إذا فسدت النية تعطلت المناظرة، ولم ينفع الطرفان من مقصودها، وتئول إلى اللجاج والمشاغبة.

قال المزنى[٢]: «حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل، وأن يقبل منها ما تبين».

وقال يوسف ابن الإمام ابن الجوزى[٣]:

«أول ما تجب البداية به حسن القصد في إظهار الحق، طلبا لما عند الله تعالى، فإن أنس من نفسه الحيد عن الغرض الصحيح فليكفها بجهده، فإن ملكها وإلا فليترك المناظرة في ذلك».

وقال الخطيب البغدادى[٤]: «ويخلص النية في جداله بأن يبتغى به وجه الله».

وقال أيضًا[٥]: «وليكن قصده في نظرة إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم».

وقال[٦]: «ويبنى أمره على النصيحة لدين الله والذي يجادله لأنه أجمع في الدين، مع أن النصيحة واجبة لجميع المسلمين».

---

(١) أصول الجدل والمناظرة فى الكتاب والسنة (ص٥٢٢: ٥٧٠) بتصرف.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧٢).

(٣) الإيضاح لقوانين الاصلاح (ص٤٢).

(٤) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٥-٢٦).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٥-٢٦).

(٦) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٦).

وقال الغزالى[١]: «أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينا لا خصما، يشكره إذا عرفه وظهر له الحق، كما لو أخذ طريقا في طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر، فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به، فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم».

وليكن قصدك من المناظرة مناصحة المخالف لا قصد العلو والغلبة، فهكذا كان السلف، قال الإمام الشافعى[٢]: «ما ناظرت أحدا إلا على النصيحة».

قال الحافظ ابن رجب معلقًا على قول الشافعى[٣]: «لأن تناظرهم كان لظهور أمر الله ورسوله، لا لظهور نفوسهم والانتصار لها».

وليحذر المناظر من فساد النية وطلب الظهور والغلبة لنفسه، فإن ذلك قد يكون سببًا للخذلان وإن كان مخالفة على الباطل، قال أبو نصر السجزى[٤]: «وليكن من قصد من تكلم في السنة اتباعها وقبولها لا مغالبة الخصوم، فإنه يعان بذلك عليهم، وإذا أراد المغالبة ربما غلب».

٢. استظهار مذهب المخالف قبل المناظرة:

مما لا شك فيه أنه لا بد للمناظر أن يعرف مذهب مخالفه ومناظره قبل مناظرته، وشبهه التي يتعلق بها حتى يعرف كيفية الانفكاك عنها ونقضها وردها إما من جهة الثبوت وإما من جهة الدلالة، وذلك أن هذه الشبهة إذا فاجأته في مجلس المناظرة فإن الانفكاك عنها قد لا يكون كما لو استعد لها من قبل، كما أن معرفة هذه الشبهة من قبل أدعى لسكون المناظر وهدوئه واعتدال مزاجه الذي يحصل معه كمال الرأي.

وهذا الأمر قد دلنا عليه الشرع وأرشدنا إليه، فلما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل ﷺ إلى

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٩).

(٣) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٣٤).

(٤) الرد على من أنكر الصوت والحرف (ص٢٣٥).

اليمن قال له: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب**»[١]، قال الشيخ العلامة محمد الصالح العثيمين: «وذلك من أجل أن يستعد لهم ويعرف ما عندهم من الكتاب حتى يرد عليهم بما جاءوا به»[٢].

ولذلك أوصى العلماء بهذا الأمر لأهميته وبينوا أنه من باب إعداد العُدة، وأن المتهاون فيه كمن يذهب للجهاد بلا عدة.

قال أبو حاتم ابن حبان: «والعاقل لا يقاتل من غير عدة، ولا يخاصم بغير حجة، ولا يصارع بغير قوة»[٣].

وقال الشيخ يحيى العمرانى: «وكما قيل من لم يطلع على دلائل خصمه لم يقدر على قطعه وقصمه»[٤].

وقال الشيخ العلامة محمد الصالح العثيمين: «ولكن ها هنا أمر يجب التفطن له وهو: أنه لا ينبغي للإنسان أن يدخل في مجادلة أحد إلا بعد أن يعرف حجته ويكون مستعدا لدحرها والجواب عنها، لأنه إذا دخل في غير معرفة صارت العاقبة عليه، إلا أن يشاء الله، كما أن الإنسان لا يدخل في ميدان المعركة مع العدو إلا بسلاح وشجاعة»[٥].

ولذلك ترى الراسخ في العلم المتصدي لرد البدع والأهواء عالمًا بشبههم وضلالاتهم على وجه الاستقصاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من ابتدعها،

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المغازى باب ما جاء في دعاء النبي أمته، (٨/ ٦٠)، رقم (٤٣٤١)، ومسلم فى كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين رقم (٩)، (١/ ١٥٠)، أبو داود باب زكاة السائمة رقم (١٥٨٦)، (٥/ ١١٣).

(٢) شرح كشف الشبهات (ص٦٦).

(٣) روضة العقلاء (ص٢٥).

(٤) الانتصار فى الرد على المعتزلة القدرية الأشرار(١/ ٩٠).

(٥) شرح كشف الشبهات (ص٧٣)

وما كان سبب ابتداعها»[١].

وقال أيضًا: «كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه»[٢].

ولذا كان رحمه الله عالمًا بما سيورده مخالفوه قبل أن يتكلموا به، فإنه حكى في المناظرة في العقيدة الواسطية: «فأحضر بعض أكابرهم «كتاب الأسماء والصفات» للبيهقي رحمه الله تعالى، فقال: «هذا فيه تأويل الوجه عن السلف»[٣].

فقلت: «لعلك تعني قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾؟ [البقرة: ١١٥] فقال: نعم»[٤].

بل إن بعض أهل العلم يتصور المناظرة في مخيلته قبل أن تقع حقيقة، وذلك من باب الاستعداد والتدريب.

فهذا علامة العراق عبد الله السويدي رحمه الله لما أُستدعى لمناظرة سبعين رأسًا من علماء الرافضة بأمر ملك إيران نادر شاه في ٢٥ شوال ١١٥٦هـ، وبحضور ستين ألفا من العرب والعجم، فكان أن أظهر الله السنة وكبت البدعة، فلله الحمد والمنة.

وكان من أسباب ظهور الشيخ عبد الله السويدي عليهم هو استعداده الذهني والنفسي لهذه المناظرة.

قال الشيخ عبد الله السويدي: «فلم أزل في الطريق أصور الدلائل من الطرفين، وأتخيل الأجوبة إذا وقع اعتراض؛ ولم يزل هذا دأبي وديدني، لا فكر لي إلا في تصوير الدلائل ودفع الشبه، حتى إني صورت أكثر من مائة دليل؛ وعلى كل دليل جعلت جوابا أو جوابين أو

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٩٣).

(٤) هذا ليس بتأويل، لأن الوجه لغة يطلق على الجهة أيضًا كما أن الله قد ذكر الجهات المشرق والمغرب قبل ذكر الوجه، وكذلك قال: «فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ» وأين من الظروف، «تُوَلُّواْ» أي تستقبلوا. انظر مجموع الفتاوى (٦/ ١٦).

ثلاثة؛ على حسب الشبه ومظنتها»[١].

٣. مراعاة قدر المناظر:

الناس طبقات في العلم، فينبغي على المناظر أن لا يلتزم حالة واحدة مع كل من يناظره، فيميز بين العالم ومن دونه، وبين المتحري للحق والمتعنت، وبين السني والبدعي، وبين المناظر والمتطفل.

يقبل على العالم والمسترشد ويعرض عن المتعنت والمتطفل، ويلين للسني ما لا يلين للبدعي، إلا إن ظهر تحريه للحق.

ومراعاة مقادير الناس مما جاء به الشرع، قالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم[٢].

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «ومعنى هذا الحديث الحض على مراعاة مقادير الناس ومراتبهم ومناصبهم، فيعامل كل أحد منهم بما يليق بحاله، وبما يلائم منصبه في الدين والعلم، والشرف والمرتبة، فإن الله تعالى قد رتب عبيده وخلقه، وأعطى كل ذي حق حقه، وقد قال ﷺ: «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[٣].

فتُناظر الشيخ على سبيل الاسترشاد مع غاية الاحترام والتواضع وخفض الصوت، لا تعامله معاملة النظير ومن في رتبتك من العلم.

وهذا الأدب نبه عليه العلماء حتى لا يُغمط العلماء والأشراف أقدراهم، بداعي المناظرة وتلمس الحق.

قال إمام الحرمين الجويني: «وعليك بالمحافظة على قدرك وقدر خصمك وإنزال كل أحد

---

(١) مؤتمر النجف (ص٦٤)، تحقيق محب الدين الخطيب، طبعة دار عمار، الأردن الطبعة الأولى.

(٢) مقدمة صحيح مسلم (ص٤)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (١٠٥٦١)، ومسند أبي يعلى.

(٣) رواه البخاري في صحيحه باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا رقم (٣٣٥٣)، رواه مسلم باب من فضائل يوسف عليه السلام رقم (٦٣١١)، والنسائي والحاكم وغيرهم، المفهم (١/ ١٢٧).

في وجه كلامك معه درجته ومنزلته، فتميز بين النظير وبين المسترشد، وبين الأستاذ، ومن يصلح لك.

ولا تناظر النظير مناظرة المبتدئ والمسترشد، ولا تناظر أستاذينك مناظرة الأكفاء والنظراء، بل تناظر كلا على حقه، وتحفظ كلا على رتبته»[١].

وكذلك ينبغي مراعاة أقدار الوجهاء والشرفاء والرؤساء فُيخاطبون باللّين، وبألطف عبارة، ويُعدل معهم عن الأمر إلى العرض وعن المعارضة إلى السؤال وهكذا.

قال ابن القيم: «فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعا وعقلا وعرفا، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل»[٢].

٤. المجادلة بالحسنى:

أمرنا الله عز وجل بالمجادلة بالحسنى، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن الحنبلي[٣] في معنى الآية:

«الإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلها ودحضها، ويحتمل بترك الغلظة في حال جدالهم لتكون عليهم الحجة أظهر والجحد منهم أنكد، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة»[٤].

---

(١) الكافية في الجدل (ص٥٣١).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).

(٣)ابن الحنبلي: هو عبد الملك بن عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج الشيرازي ثم الدمشقي القاضي الأوحد بهاء الدين ابن الحنبلي شيخ الحنابلة ورئيسهم بدمشق، قال حمزة بن القلانسي: مات في رجب، قال: وكان إماما مناظرًا مفتيا على مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، كتاب تاريخ الإسلام (١/ ٣٧٨٩).

(٤) استخراج الجدال من القرآن الكريم (ص ٤٢).

والله يُعطي على الرفق ما لا يُعطي على الغلظة والمخاشنة، وألفة الباطل واعتقاده السنوات الطويلة لا تُزال إلا بمشقة، لأن النفوس تنفر من الخروج عما ألفته، فلا بد من ملاطفتها والأخذ بيدها إلى الحق بلطف وإظهار الشفقة والنصح، ربما اعتقد المخاطب أن من كان منحرفا في الأدب فهو فيما ينازع فيه أشد انحرافا وميلا عن جادة الحق.

قال الخطابي مبينًا ثمرات المجادلة بالحسنى: «فإن مثل هذه المجادلة تقيم الحجة، ولا تورث الوحشة»[١].

وربما كان إغلاظك سببًا في عناد مخالفك وبقائه على ضلالته، قال الشاطبي في فوائد المجادلة بالحسنى واللين والرفق: «لأن ذلك أدعى إلى القبول وترك العناد وإطفاء نار العصبية»[٢].

وذكر العلامة صديق حسن خان من جملة مفاسد التوبيخ في الردود: «إن الرد بالتوبيخ يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار»[٣].

فاسلك مع مخالفك طريق الإنصاف والملاطفة في القول، وائته من جهة المناصحة، ليكون ذلك أدعى لسكونه وقبوله وانقياده.

قال الغزالي: «فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم إلى الحق، لا في معرض اللجاج والتعصب، إن ذلك يهيج بواعث التمادي والإصرار، وأكثر الجهالات إنما رسخت بتعصب جماعة أهل الحق، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين النحس والإزراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة، وتعسر على العلماء المنطقيين محوها»[٤].

وقال أبو الوليد الباجي: «فإن اللطف في الأمور أنفع والرفق أنجع»[٥].

والمناظر إذا كان ظالما باغيًا فلا بأس من مخاشنته وإغلاظ القول معه ولا تُعد هذه إساءة،

---

(١) أعلام الحديث (١/ ١٩٣).
(٢) الموافقات (٢/ ١٠٦).
(٣) أبجد العلوم (١/ ١٢٩).
(٤) إحياء علوم الدين (١/ ١٩٦).
(٥) المنهاج بترتيب الحجاج (ص١٠).

قال أبو سعيد الخوارزمي: «الإساءة بلسان الحق إحسان»[١].

وانظر إلى رسول الله ﷺ لما ناظر ابن صياد، ماذا قال له؟ قال: «**اخسأ فلن تعدو قدرك**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ** ﴾[٣] [العنكبوت: ٤٦]. فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن»[٤].

وقال في جوابه على سؤال ورد إليه عن سبب إغلاظه القول مع المبتدعة: «ما ذكرتم من لين الكلام، والمخاطبة بالتي هي أحسن، فأنتم تعلمون أني من أكثر الناس استعمالا لهذا، لكن كل شئ في موضعه حسن، وحيث أمر الله ورسوله بالإغلاظ على المتكلم لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته، لم نكن مأمورين أن نخاطبه بالتي هي أحسن»[٥].

وقال أيضًا: «فإن الظالم باغ معتد مستحق للعقوبة، فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة، لا يجب الاقتصار معه على التي هي أحسن، بخلاف من لم يظلم، فإنه لا يجادل إلا بالتي هي أحسن»[٦].

٥. استعمال السمت الحسن:

السمت الحسن والوقار محمود استعماله شرعًا بكل حال، وهو حلية المؤمن وزينته، وهو

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (١/ ١٨٥).

(٢) رواه البخاري باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه رقم (١٣٥٤)، (٥/ ٢٧٦)، ومسلم باب ذكر ابن صياد رقم (٧٥٢٩)، (١٨/ ٤٠٤)، وأبو داود باب في خبر ابن صائد رقم (٤٣٣١)، (١٢/ ٤٦٦).

(٣) وروى القرطبي (١٣/ ٣٥١) عن مجاهد وسعيد بن جبير تفسيرهما للذين ظلموا: «معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية».

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣٢).

(٦) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٣٧).

سبب لتأييد الله، وميل الناس في جهته.

والمستطيل بضد ذلك تنفر منه النفوس ويستزله الشيطان، والله لا يحب الظالمين.

قال ابن عقيل: «المخاصمة موازنة، فمتى خاصم الإنسان قبل موازنة الحال بالحال غلب وخسر، فمن أشكال الرجال ما يكون مخاصمة عنه، ومن أشكالهم ما يكون وبالا عليه.

فمن الناس من يكون له سمت وعليه مسحة من تواضع وذل، فمتى خاصمه من عليه سيماء الجلادة، كان الناس كلهم مع صاحب السمت، لما يغلب على ظنهم من ضعف ذلك السمتيت[١] ووقاره، وفورة ذلك الجلد وتسلطه.

فمخاصم ذلك السمتيت معينا على نفسه، حيث حمل الناس بخصومته على ظهره ومن خاصم الناس خصم.

ومن اعتمد على ما يعلمه من نفسه وبراعته، لم يكد ينفعه علمه ما لم يجعل عليه شاهد من براءته»[٢].

وهذه حكاية مناظرة جرت بين إمامين جليلين توقفك على حقيقة تأثير السمت الحسن على الحاضرين لمجلس المناظرة.

قال عون بن حكيم: «حججت مع الأوزاعي وكان حاجا، فلما أتينا المدينة أتى المسجد، فبلغ مالكا مقدمه، فأتاه فسلم عليه، قال: فجلسا بين الظهر والعصر يتذكران الفقه، فلا يذكران بابا من أبواب العلم إلا ذهب الأوزاعي عليه، ثم صليا العصر، فعاودا المذاكرة، فلم يزل الأوزاعي على تلك الحال حتى اصفرت الشمس، فناظره مالك في كتاب المكاتب والمدبر فخالفه فيه.

فلما صليا قلت لأصحابه: كيف رأيتم صاحبنا من صاحبكم؟ فقالوا: لو لم يكن في

---

(١) صاحب السمت الحسن كمن عليه سيماء الجلادة.

(٢) الفنون (١/ ٣٧١).

صاحبكم إلا سمته لأقررنا بفضله»[١].

٦. الإعراض عن مجالس الهيبة:

هيبة العالم أو السلطان تحمل البعض على ترك الاعتراض أو إيراد السؤال أو حتى التجرؤ على التخطئة.

وإذا حصل هذا للمناظر فإنه يئول إلى الإخلال بموازين المناظرة، فينفرد المهيب في جولة المناظرة فيحصل له الرجحان.

واعتبر بحال ابن عباس رضي الله عنهما مع عمر بن الخطاب ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما لعمر ﷺ: «والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك ... حديث طويل»[٢].

وقال إمام الحرمين الجويني: «وإياك والكلام في مجالس الخوف والهيبة فإنك عند ذلك في حراسة الروح على شغل من حراسة المذهب ونصرة الدين»[٣].

وقال القحطاني[٤]:

واحـــذر منـــاظرة بمجلـــس خيفـــة حتـــى تبـــدل خيفـــة بأمـــان

والمناظرة مع المهيب تشغل الذهن بملاحظته، ويحول بين المناظر ولبه.

وقد ناظر أبو بكر بن العربي رافضيًا في مجلسه وبلده ومنعته الهيبة من إفحامه خشية أن ينتقم منه كما قال: «وقطعنا الكلام على غرض مني، لأني خفت أن أفحمه فينتقم مني في بلاده»[٥].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٤/ ٣١٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير باب تبتغي مرضاة أزواجك رقم (٤٩١٣)، (١٦/ ٢٧٨)، ومسلم باب في الإيلاء واعتزال النساء رقم (٣٧٦٥) (٩/ ٤٣٩).

(٣) الكافية في الجدل (٥٣٠).

(٤) النونية (ص٤٠).

(٥) العواصم من القواصم (ص٤٧).

وقال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي: «وإذا كان المجلس مجلس عصبية على أحد الخصمين بالتخليط عليه، وقل فيه التمكين من الإنصاف، فينبغي أن يحذر من الكلام فيه، فإنما ذلك إثارة للطباع وجلب للإفحاش، ويفضي إلى انقطاع القوي المنصف بما يتداخله من الغضب والغم المانعين له من صحة النظر والصادين له من طريق العلم»[١].

٧. عدم التهاون مع المخالف:

التهاون مع المخالف قد يؤدي إلى عدم الجد في القيام بالحجة، وهذا يفعله البعض إذا ناظره صغير أو غير نحرير[٢]، فيقطعه من حيث اعتقد ضمان ظهوره عليه.

قال العلامة الشنقيطي في آداب المتناظرين: «ومنها ألا يحسب خصمه حقيرا قليل الشأن، لأن ذلك يؤدي إلى عدم الجد والاجتهاد في القيام بحجته، فيكون ذلك سببا لغلبة الخصم الضعيف له، وغلبة القرن الحقير أشنع من غلبة القرن العظيم، كما قال الشاعر:

ولـــو أني بليـــت بهاشـــمي خئولـــه بنـــو عبـــد المـــدان

لهـــان عـــلى مـــا ألقـــى ولكـــن تعـــالوا فـــانظروا بمـــن ابـــتلاني[٣]

وعن حاتم الطائي لما لطمته عجوز قبيحة قال: «لو ذات سوار لطمتني»[٤] اهـ.

وقال أبو الوليد الباجي: «ولا يثق بقوته وضعف خصمه، فإن ذلك يفضي إلى الضعف والانقطاع»[٥].

وقال إمام الحرمين الجويني: «وإياك واستصغار من تناظره والاستهزاء به كائنًا ما كان،

---

(١) الواضح في أصول الفقه (١/ ٥٢٢).

(٢) النحرير: هو الحاذق فيقال تَاجِرٌ نَحْرِيرٌ هُوَ الحَاذِقُ العَالِمُ بِالتِّجارَة وعلام نحرير الحاذق في علمه، وقال ابن فارس العالم بالشيء المجرب مقاييس اللغة (٥/ ٣٢٠).

(٣) من قصيدة لمحمد مهد الجواهري من شعراء العراق والشام، رقم القصيدة (٦٤٣٣٦)، كتاب دووان الشعر العربي على مر العصور، (٦٥/ ٩٣).

(٤) آداب البحث والمناظرة (٢/ ٩١).

(٥) المنهاج بترتيب الحجاج (ص ١٠).

لأن خصمك إن كان ممن المفترض عليك في الدين مناظرته فهو نظيرك، لا يجمل بك إلا مناظرة النظير للنظير.

وإن يك من تكلمه غير أهل لأن تناظره كان الواجب ألا تفاتحه بالكلام، فإذا ما فاتحته ثم استصغرته واستخففت به لم يجتمع ذهنك ولا صفاء قريحتك ولا اشتد خاطرك، فربما يتفق له لشؤم حالك عليك ما لا قبل لك به»[١].

وقد تهاون الإمام الشافعي رحمه الله مرة في مناظرة إسحاق بن راهويه، فلم يعرفه فظهر عليه إسحاق[٢].

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله: «ولا يستحقر خصمه لصغره فيسامحه في نظره، بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء، لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع»[٣].

٨. عدم الإفراط في التوقي من الخصم:

كما أنه لا ينبغي للمناظر التهاون مع خصمه، كذلك لا ينبغي له الإفراط في الاحتياط حتى لا يستوي عليه الخذلان فينقطع، وكما قيل: «من التوقي ترك الإفراط في التوقي»[٤].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «رأس التوقي ترك الإفراط في التوقي»[٥].

وقال النقاش: «صدق الشافعي، لأن الإفراط هو مجاوزة الحق في مقدار المصلحة»[٦].

وقال ابن عقيل[٧]: «فإن النفس كما أنها قد تغلب بترك التحرز، قد تُقدم مع الجهالة بحال

---

(١) الكافية فى الجدل (ص٥٣١).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٢٣٦).
(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٩).
(٤) العواصم من القواصم (ص٤٧).
(٥) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (١/ ١٤٥).
(٦) المرجع السابق.
(٧) الفنون (١/ ٢٥١- ٢٥٢) بتصرف.

الخصم، وتجبن عند التعريف، ولو لم تعلم ذلك حكماء العرب لما انتسبت عند البراز[١] واللقاء.

ولا شك أنها لم تقصد إلا إضعاف قلوب المبارزين، فإن الإنسان إذا عرف الصور المبارزة، استولى عليه الانخذال والاسترسال، واستشعر الهزيمة لما يلحظ من أيام المنتسب ووقعاته، وما تقدم له من سوابق الغلبة.

ومن ذلك ما يفعله العقلاء من تهوين بعض الأمور، فإنما يقصدون فيها الوسط، لا الغاية والإفراط، كتأخرهم لقفز النهر، فإنه كما يتهيأ للقفز من جانب النهر حتى يفسح وراءه للتحمي، كذلك لا ينبغي أن يبعد حتى يفزع نفسه ويقطع قلبه عن الإقدام، لأن الإنسان كما يحتاج أن يتهيب ليحترز، يحتاج أن لا يفرط فينقطع.

وتخليص الاعتدال والمقاومة طب العقل، وما أصعب هذا الأمر عند من خبر تغالب الأشياء وتقاومها، وانتهى كل شيء إلى ضده.

وما أحسن ما بيَن الحق سبحانه وتعالى سلوك الوسط بقوله: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا** ﴾ [الفرقان: ٦٧]. فهو الذي ركب في الطباع الغالب، وجعل بينها واسطة تنهي عن الإسراف والإضاعة والبخل والإمساك، وهو الشرع المؤدب سبحانه وتعالى».

٩. الاتفاق على الأسس:

المتناظران لابد أن يرجعا في المسألة التي اختلفا فيها إلى كليات ليتم تحرير المسألة المختلف فيها.

فلا بد للطرفين من الموافقة على هذه الكليات، وإذا نُوزع في هذه الكليات لم تنتظم مناظرة، ولم يكن إقامة حجة ولا تقرير مذهب.

---

(١) البراز: المبارزة، مصدر برز أي ظهر، والبراز الخروج والظهور، والبروز: كل ما ظهر بعد خفاء، المحيط في اللغة (٢/ ٢٩٦).

قال الشاطبي: «وإن كان المناظر مخالفًا له في الكليات التي ينبنى عليها النظر في المسألة فلا يستقيم له الاستعانة به، ولا ينتفع في مناظرته، إذ ما من وجه جزئي في مسألته إلا وهو مبني على كلي، وإذا خالف في الكلي ففي الجزئي المبني عليه أولى، فتقع مخالفته في الجزئي من جهتين، ولا يمكن رجوعها إلى معنى متفق عليه فالاستعانة مفقودة»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات»[٢].

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «ينبغي لمن ناظر غيره أن يؤسس الأسس التي يتفق عليها المتناظران، ثم إذا حصل الاتفاق وتم الالتئام، انتقل منه إلى المواضع المختلف فيها بلطف وهدوء»[٣].

١٠. تحرير موضع النزاع بألفاظ واضحة غير مشتبهة:

مقصود المجادلة هو قطع النزاع، وهذا لا يتأتى إلا باستعمال الواضح من الألفاظ واجتناب المجمل منها، لأن المجمل يزيد النزاع نزاعًا ويطيل القيل والقال، ويحصل به تطويل، وربما أدى ذلك إلى انصراف الجدال إلى هذه الألفاظ المجملة المستعملة، وكان سببًا للحيدة عن أصل المسألة المتجادل فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كثير من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة، معان مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق الألفاظ ونفيها، ولم يلزم أن المخالف يكون مخطئا، بل يكون في قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيبًا من وجه، وهذا مصيبًا من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث»[٤].

وقال العلامة الشنقيطي في آداب المتناظرين: «ومنها أن يتجنبا غرابة الألفاظ وإجمالها»[٥].

---

(١) الموافقات (٤/ ٣٣٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٥).
(٣) مجموع الفوائد (ص٢٥٥).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٤).
(٥) آداب البحث والمناظرة (ص٩١).

فينبغي إيضاح الحق بأوجز لفظ وأبينه، وإلغاء ما يجب إلغاؤه من الأقوال والمعاني والأدلة التي لا علاقة لها بموضع النزاع.

١١. ترك الالتفات إلى الحاضرين:

الالتفات إلى الحاضرين يشوش الذهن، فينقطع استجماع الذهن، وربما يكون ذلك سببًا في ضعف القيام بالحجة.

وإذا انشغل القلب بملاحظة الحاضرين، ليرى أثر أقواله في محياهم، كان هذا مما يحرك دواعي الرياء فيه أيضًا، وهذا مذموم شرعًا.

قال إمام الحرمين الجويني: «التقرب إلى الله سبحانه يجب أن يكون بحيث يمنعك عن الالتفات إلى الحاضرين خالفوك أم وافقوك فإنه سبحانه عند ذلك يكفيك المهم، ويعينك في تقوية ذهنك وتصفية فهمك وإمداد خواطرك والكشف عن الحق على لسانك»[(١)].

وبعض من يعلم ما للحاضرين من تأثير في تشويش ذهن المناظر وإضعاف خاطره والنيل من جأشه، يحضر معه أتباعه ويوصيهم حيلة بإظهار علامات السخط من كلام مخالفهم وإيهامه بضعف أدلته وإسقاطه في يد صاحبهم حتى يسهل قطعه، قال أبو حنيفة لأصحابه: «إذا ناظرتم فأظهروا الضحك، يقضي عليك الجمهور بالغلبة»[(٢)].

١٢. الإقبال على المناظر:

الواجب على المناظر أن يستقبل خصمه ويكون قبل وجهه حتى يسمع الناس مقالته خصوصًا المناظر له، فيكون بارزًا ظاهرًا، فهذا هو الذي يحصل به مقصود المناظرة وهو الذي جرى عليه العمل، ولم يلتفت أحد إلى من هو متخف أو متأخر عن أهل المجلس، ولهذا لما ذاكر عمر بن عبد العزيز رحمه الله أهل مجلسه في القسامة أمر أبا قلابة أن يتكلم، وقال أبو قلابة: «ونصبني للناس»[(٣)].

---

(١) الكافية فى الجدل (ص٥٣٠).

(٢) مناقب الشافعى للبيهقى (١/ ١٩٨).

(٣) رواه البخارى كتاب الديات باب القسامة (١٢/ ٢٣٠) رقم (٦٨٩٩).

قال الحافظ ابن حجر[١]: «قوله: «ونصبني للناس» أي أبرزني لمناظرتهم، أو لكونه كان خلف السرير -يعني كرسي السلطان- فأمره أن يظهر، وفي رواية أبي عوانة «وأبو قلابة خلف السرير قاعدًا فالتفت إليه فقال: ما تقول يا أبا قلابة».

وهذا الإقبال على المناظر، حتى يستجمع المناظر فكره ولا ينشغل بغيره عنه، وحتى لا يظن المناظر له أنه مستخف به معرض عنه.

قال أبو الوليد الباجي: «ويقبل على خصمه، فإنه أحسن في الأدب»[٢].

وقال إمام الحرمين الجويني: «وعلى كل منهما أن يقبل على خصمه الذي يكلمه بوجهه في خطابه المتكلم في كلامه والمستمع في استماعه. فإن التف أو أعرض عنه في الاستماع أو الخطاب وعظه، فإن لم يقبل قطع مناظرته؛ لأن ترك الإقبال وحسن الاستماع يشغل قلب المتكلم والمستمع فتنقطع عليه مادة الفهم والخاطر»[٣].

والمناظرة موعظة ونصيحة لاستخراج الحق، قال عمر بن عبد العزيز: «كل واعظ قبلة»، قال الحافظ ابن رجب في معناه: «يعني أن يستقبل كما تستقبل القبلة»[٤].

١٣. اعتدال المزاج:

ينبغي للمناظر أن لا يناظر غيره مع عدم اعتدال طبعه ومزاجه، كأن يكون في حالة جوع أو عطش، لئلا يتصور خلاف الحق مع تشويش الذهن.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومعلوم أن الرأي لا يتحقق إلا مع اعتدال المزاج»[٥].

وأقل الأحوال أن ينحصر المناظر في هذه الحالة عن الاستيفاء في استخراج الأدلة والرد على مواضع الشبه.

---

(١) فتح البارى (١٢/ ٢٤٠).
(٢) المنهاج فى ترتيب الحجاج (ص٩).
(٣) الكافية فى الجدل (ص٥٣٤).
(٤) فتح البارى (٨/ ٢٤٩).
(٥) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٦).

قال ابن عقيل الحنبلي: «والمناظرة حيث وضعت فإنها وضعت لاستخراج حكم الله في الحادثة، فاعتبر لها اعتدال الطبع»[١].

وقال أبو الوليد الباجي: «ولا يناظر في حالة الجوع والعطش، ولا في حال الخوف والغضب، ولا في حال يتغير فيها عن طبعه، ولا يتكلم في مجلس تأخذه فيه هيبة، ولا بحضرة من يُزري بكلامه، لأن ذلك كله يشغل الخاطر ويقطع المادة»[٢].

١٤. تجنب الغضب والضجر:

الغضب يذهب بلب المناظر، بل من الناس من يشتد غضبه حتى يغلق عليه فلا يدري ماذا يخرج من رأسه. فالغضب يحول بين المناظر وبين كمال معرفته للحق، ولهذا من يتحايل في مناظرته يغضب مخالفه حتى يحول بينه وبين كمال معرفته للحق.

قال أبو بكر الطرطوشي: «الغضب عند المناظرة منسأة للحجة»[٣].

وقال ابن القيم: «فإن الغضب غول العقل يغتاله كما تغتاله الخمر، ولهذا نهى النبي أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان.

والغضب نوع من الغلق والإغلاق الذي يغلق على صاحبه باب حسن التصور والقصد»[٤].

وليحذر المناظر من مهيجات الغضب كرفع الصوت والصياح.

قال أبو الوليد الباجي: «ولا يكثر الصياح حتى يشق على نفسه، لأن ذلك يقطعه وينسب منه إلى الضجر»[٥].

---

(١) كتاب الجدل على طريقة الفقهاء (ص٢٤٤).
(٢) المنهاج بترتيب الحجاج (ص١٠).
(٣) سراج الملوك (ص٤٧٠).
(٤) أعلام الموقعين (٢/ ١٥٦).
(٥) المنهاج بترتيب الحجاج (ص٩).

وقال الجويني: «ويحذر رفع الصوت جهرًا زائدًا على مقدار الحاجة، فإنه يورث الحدة والضجر.

ويتجنب من أسباب الضجر والحدة، فإنه يورث البلادة، وإن كان يتوهمه جلاده، ويقطع مادة الفهم والخاطر»[١].

وقال الخطيب البغدادي: «ولا يرفع صوته في كلامه عاليًا فيشق حلقه ويحمي صدره ويقطعه، وذلك من دواعي الغضب»[٢].

وقال عبد الله بن المعتز: «شدة الغضب تعثر المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الهم»[٣].

١٥. تفحص الكلام قبل إرساله:

ينبغي على المناظر أن يدقق في الكلام الذي يريد أن يلقيه على مناظره، فيتفهم معانيه ويثبت في ذلك غاية التثبت من غير استعجال قبل إرساله، ويتفحص الكلام ومدى مطابقته للمسألة المتناظر فيها، وما يرد عليه من اللوازم، وما قد تلزمه به الحجة أو يثبت به تناقضه.

فغير جميل أن ترسل الكلام ثم تطلب الخروج من عهدته والإقالة منه، وربما استدل الحضور بهذا على عدم رسوخك في المسألة المتناظر فيها. ومخالفك متربص ناقد فلا تغفل عن ملاحظة هذا.

قال أعرابي: «الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها كان أسيرًا في وثاقها»[٤].

«ولا يحملك توهم أن الإسراع براعة والإبطاء عجز ومنقصة، وذلك جهل، ولئن تبطئ ولا تخطئ أكمل من أن تعجل فتخطئ»[٥].

---

(١) الكافية فى الجدل (ص٥٢٩).
(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٨).
(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٦).
(٤) بهجة المجالس (١/ ٧٩).
(٥) أدب المفتى والمستفتى (ص١١١).

قال شعبة بن الحجاج:

«من الناس من عقله بفنائه ومنهم من عقله معه، ومنهم من لا عقل له، فأما الذي عقله معه فالذي يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم، وأما الذي عقله بفنائه فالذي يبصر ما يخرج بعد أن يتكلم»[١].

١٦. إنصاف مناظرك:

المناظرة لا تنفع إلا مع الإنصاف كما سبق، فالظلم يمنع من الاستماع والنظر والتفحص لكلام المناظر، ولا ينصر الحق بمثل هذه الطريقة.

والإنصاف دليل على حسن القصد وتلمس الحق وطلبه ولو على لسان مخالفك.

قال القحطاني[٢]:

ناظر أديبًا منصفًا لك عاقلًا وأنصفه أنت بحسب ما تريان

وقال البقاعي: «من العادة الجارية السكون إلى الإنصاف، والرجوع إلى الحق والاعتراف»[٣].

فلا بد من رعاية حق مناظرك فهذا أمر الشرع، وإذا كانت المناظرة في مجلسك فأنصف خصمك بتهيئة أسباب اعتدال رأيه وإعطائه حقه كاملا في إيراد حججه ومعارضة أقوالك، وإعطائه فسحة للنظر ومهلة للتأمل، فهذا من العدل أن يستوي الطرفان في أسباب القيام بالحجة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلماذا يكون الإنسان من المطففين لا يحتج لغيره كما يحتج لنفسه؟ ولا يقبل لنفسه ما يقبله لغيره»[٤].

---

(١) رواه ابن حبان فى روضة العقلاء (ص٤٦).

(٢) النونية (ص٤٠).

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٢٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٨٢).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله معلقًا على قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾: «فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه»[١].

وإنما يسلك سبيل الظلم والإخلال بموازين المساواة غير المؤدب، وضعيف الحجة طلبًا للغلبة، قال ابن القيم: «والإنصاف أن تكتال لمنازعتك بالصاع الذي تكتال به لنفسك، فإن في كل شيء وفاء وتطفيفا»[٢].

وقال العلامة ابن الوزير:

«واعلم أن ترك كلام الخصم ظلم له ظاهر وحيف عليه واضح، لأنه إنما تكلم ليكون كلامه موازنًا لكلام خصمه في كفة الميزان الذهني، وموازيًا له في جولة الميدان الجدلي، لأن المنفرد يرجح في الميزان، وإن كان ضعيفا»[٣].

وإذا قدّر أن المناظرة في غير مجلسك، فلا تقدم عليها إذا لم تستو مع مناظرك في أسباب القيام بالحجة ولم ينصفك القوم، قال إمام الحرمين الجويني: «وتجنب مجلس صدر لا يسوي بين الخصوم في الإقبال والاستماع وإنزال كل منزلته ورتبته، فإن الكلام بين يدي مثله: سخف ودناءة واحتمال الذل والصغار إذا رضيت به، وموروث الغم والغضب إذا لم ترض»[٤].

١٧. مراعاة كلام المناظر:

ينبغي على المناظر أن يتأمل كلام مناظره ويحسن الإنصات إليه، ويتدبره غاية التدبر، حتى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٩١٥).
(٢) تهذيب السنن (١/ ١٢٢).
(٣) العواصم من القواصم (١/ ٢٣٧).
(٤) الكافية فى الجدل (١/ ٥٣).

يدرك أدلة مخالفة وحججه ومدارك قوله، ويبين له بذلك فساد كلامه إن كانت مقولته خاطئة، أو صواب كلامه إن كانت مقولته حقا.

قال أبو الوليد الباجي: «ويحسن الاستماع إلى كلامه، فإنه ربما بان له في كلامه ما رآه له على فساده؛ فيكون له عونا على نظره»[١].

وقال إمام الحرمين الجويني: «وعليك بمراعاة كلام الخصم، وتفهم معانيه على غاية الحد والاستقصاء فإن فيه أمانا من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك، فيسهل عليك عند ذلك وضع كل شئ موضعه. وفيه أيضا أمان من تلبيس الخصم والذهاب عن تزويره»[٢].

١٨. ترك المداخلة والمصادرة:

إذا شرع الطرفان في المناظرة، وبدأ أحد الطرفين بذكر حججه، فالواجب على الآخر الإنصات وعدم المداخلة على المتكلم حتى يأتي على آخر كلامه.

قال الشنقيطي في آداب المتناظرين: «أن ينتظر كل واحد منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه ولا يقطع عليه كلامه قبل أن يتمه»[٣].

وقال الغزالي في هذا: «أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال، فهكذا كانت مناظرات السلف»[٤].

هذا شأن المنصف طالب الحق، بخلاف المشاغب الذي يثب على مناظره مصارعة في الكلام، ويقطع عليه حديثه رغبة في الاحتيال حتى يمنعه من تقرير حجته أو يُشوش ذهنه.

قال أبو الوليد الباجي: «ولا يداخله في نوبته ويصبر له حتى يفرغ من كلامه، فإن المداخلة تذهب بالفائدة وتدعو إلى الوحشة»[٥].

---

(١) المنهاج في ترتيب الحجاج (ص٩).
(٢) الكافية في الجدل (ص٥٣٥).
(٣) آداب البحث والمناظرة (٢/ ٩١).
(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٥٠).
(٥) المنهاج بترتيب الحجاج (ص١٠).

وقال الخطيب البغدادي[١]: «وإذا وقع له شيء في أول كلام الخصم فلا يعجل بالحكم به، فربما كان في آخره ما يبين أن الغرض بخلاف الواقع له، فينبغي له أن يثبت إلى أن ينقضي الكلام، وبهذا أدب الله تعالى نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

١٩. الحرص على ود الصاحب:

المناظرة تهيج دواعي الغضب، وقد تفسد ذات البين لأن في العبد طغيان العلو، ولذلك ترى العقلاء يتدافعونها مع أصحابهم وأصدقائهم.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لمعاوية: «هل لك في المناظرة فيما زعمت أنك خاصمت فيه أصحابي؟! قال وما تصنع بذلك، أشغب بك، وتشغب بي، فيبقى في قلبك ما لا ينفعك، ويبقى في قلبي ما يضرك»[٢].

وإن كان لابد من مناظرة الصاحب فلتكن على سبيل المشاورة حتى تسلم من آفة فساد ذات البين.

وإذا اضطررت للمناظرة على سبيل المعارضة مع صاحبك فاحرص على صاحبك ولا تغفل عن حق زمالته وفضل صحبته، واقتد بالفضلاء النجباء.

قال ابن القيم في شأن مناظرات الصحابة: «كان كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغنا، ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه»[٣].

قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، فأخذ

---

(١) الفقه والمتفقه (٢/ ٣١).

(٢) بهجة المجالس (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٨).

بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في المسألة»[١].

قال الحافظ الذهبي معلقًا: «وهذا يدل على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون»[٢].

وكذا فعل الإمام أحمد مع زميله وصاحبه على بن المديني، قال العباس بن عبد العظيم العنبري: «كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه على بن المديني راكبًا على دابة، قال: فتناظروا في الشهادة، وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، وكان أحمد يرى الشهادة، وعلى يأبى ويدفع، فلما أراد علىٌ الانصراف، قام أحمد فأخذ بركابه»[٣].

٢٠. الحذر من الشناعة علي المخالف:

البعض يسلك هذه الطريقة المذمومة حيلة وإيهامًا للحضور ببطلان حجج مناظره، فتراه لا يذكر بطلان حججه بالأدلة والبيان، وإنما يعول على التهويل والسجع، واللغط والخصام.

والشناعة على مناظرك ليس من طريق أهل المروءة والديانة والتقوى، فلا تفجر في مناظرتك ولا تقل إلا خيرًا، وهذا شأن المجادلة المذمومة.

والمجادلة المحمودة هي إبداء المدارك ومستند الأقوال بألطف عبارة وأحسنها.

قال الباجي فيما يجتنبه المناظر مع مخالفه: «التشنع عليه في جداله، فإن ذلك يفعله الضعفاء ومن لا إنصاف عنده»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد، والإنسان لو أنه يناظر المشركين وأهل الكتاب لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذي معه والباطل الذي معهم، فقد قال الله عز وجل لنبيه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ

(١) سير أعلام النبلاء(١٠/ ١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٦).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٦).
(٤) المنهاج بترتيب الحجاج (ص١٠).

﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]»[(١)].

٢١. بين المؤاخذة والمسامحة:

إذا وقع خصمك في زلة أو تناقض أو أورد ما ليس بحجة أو خرج عن الحق حيدة ورغبة عنه، فأوقفه عن زَلَلِهِ وبين له موضع خطئه وأظهر تناقضه، لأن المقصود تبين الحق ورد المخالف إليه، وصيانة الشريعة والنصح لها، ولا تسامحه في شيء من ذلك، فالحق أحق أن يتبع.

وليس معنى ذلك أن تشاغب مناظرك وتداخله حال استدلاله أو تلزمه بما ليس بلازم، بل توسط في أمرك فتسامح إن كان هذا لا يضرك ولا ينصر به باطل، وتؤاخذ من غير شناعة ولا سباب ولا سوء أدب، مع تمييزك بين ما سبق به اللسان، وما انعقد به الجنان.

قال إمام الحرمين الجويني: «ولا تسامح الخصم إلا في موضع يعلم يقينًا أن المسامحة فيه لا تضرك، لأنه طالما قيل: المسامحة في المناظرة شؤم»[(٢)].

ففي هذه الحال تعمل قول النبي ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض**[(٣)] **الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا**»[(٤)].

---

(١) نقض المنطق (ص١٥٢).

(٢) الكافية في الجدل (ص ٥٣٥).

(٣) رَبَضِ الجنة هو بفتح الباء ما حولها خارجًا عنها تشبيهًا بالأَبنية التي تكون حول المدن وتحت القِلاع، لسان العرب (٧/ ١٤٩)، وقال ابن حجر في الفتح: الأسفل، وقال القاري: نواحيها من داخلها، تحفة الأحوذي (٥/ ٢٣٨)، والصواب قول القاري وإن كان القول الأول يوافق صريح اللغة لكنه غير صحيح المعنى لأنه خلاف المنقول ويؤدي إلى المنزلة بين المنزلتين حسا كما قاله المعتزلة معنى إنما المراد أدنى الجنة.

(٤) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في حسن الخلق (٥/ ١٥٠)، رقم (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة ﷺ.

وقال الجويني أيضًا: «ولا تترك ما قدرت عليه من المضايقة، ولا تتق شنيعة تجد إليها سبيلًا إلا وقد ألحقتها به، لأنك إن ساهلته في شيء، ربما يروج له كلام في فصل فيضايقك ويشنع عليك بما يصعب عليك التقصي عن أمره وإزالة إيهامه. ولأنك إذا ضايقته في كل معنى وعبارة ضعف قلبه في بدو النظر، فلا يروج له شيء بعدها»[١].

ففي هذا الحال تتلمح ما أكثر به الصحابي من المضايقة في طلب حقه حتى قال النبي ﷺ: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالا**»[٢].

٢٢. الإعراض عن العجب:

مقصود المناظرة طلب الحق، وهداية الخلق إليه، ومن فسد قصده يطلبها للمفاخرة والمباهاة، وفي العبد طغيان العلو، والمناظرات تحرك دواعي المخيلة والعجب.

فإذا ظهر الحق في جانبك فتواضع ولا تتحامق ولا تختال على عباد الله، فإن ذلك أدعى لقبول مناظرك للحق، واحمد الله على الهداية والتوفيق.

قال القحطاني:

وإذا غلبت الخصم لا تهزأ به فالعجب يخمد جمرة الإحسان[٣]

وقال أبو الوليد الباجي: «ولا يقصد به المباهاة والمفاخرة، فيذهب مقصوده ويكتسب إثمه ووزره»[٤].

وقال: «ولا يشغف بكلامه ولا يعجب بجداله، فإن ذلك يدعو إلى المقت»[٥].

وقال الخطيب البغدادي: «وينبغي أن لا يكون معجبًا بكلامه مفتونًا بجداله، فإن

---

(١) الكافية في الجدل (ص ٥٣٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستقراض في الإبل باب الوكالة في قضاء الديون رقم (٢٣٩٠)، ومسلم في كتاب المساقاة باب من استسلف شيئًا فقضى خيرًا منه رقم (١٦٠١).

(٣) النونية (ص ٣٩).

(٤) المنهاج بترتيب الحجاج (ص ٩).

(٥) المرجع السابق.

الإعجاب ضد الصواب ومنه تقع العصبية، وهو رأس كل بلية»[١].

٢٣. التبسم مع المخالف:

مخالفك لاسيما إن كان مسلمًا[٢] فالتبسم في وجهه مندوب شرعًا رغب فيه الشارع، وهكذا ينبغي أن تعامل مخالفك إذا كان سنيًا منصفا عدلا، وهو أيضًا مما يعين على توجيه المناظرة بعيدًا عن المشاجرة والمخاصمة.

وعلى العكس من ذلك العُبوس يُحرك دواعي المراء ويثير غبار اللجاج، وترى صاحبه متهيئًا للمخاصمة والوثوب على مناظره، قال إمام الحرمين الجويني: «وكن مع خصمك مستبشرًا مبتسمًا غير عبوس، فتكون أنت وخصمك عند ذلك عن دواعي الغضب والضجر أبعد»[٣].

وإذا كان خصمك ظلومًا معاندًا متعنتًا فإن تبسمك في وجهه يخرجه عن حد الاعتدال ويُشغل فكره، ظنًا منه أنك مقتدر ضامن خسارته، فيفتر حينئذ خصمك ويكل حسامه فتحكم خسارته، وهذه صفة الراسخين في العلم، وهكذا وُصف الموفق ابن قدامة:

«كان لا يناظر أحدًا إلا وهو يبتسم، حتى قال بعض الناس: هذا الشيخ يقتل خصمه بتبسمه»[٤].

٢٤. تقديم الأقوى من الحجج:

ربما ظن البعض أن الأفضل له حال المناظرة أن يتدرج في أدلته التي يوردها من الأضعف إلى الأقوى، فيبدأ بالأدلة التي أبعد وأغمض عن صريح الدلالة في المسألة المتناظر فيها، حتى يصل إلى أصرح وأقوى الحجج.

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٠).

(٢) وجه التخصيص هنا لحديث «تبسمك في وجه أخيك صدقة» رواه الترمذي باب ما جاء في صنائع المعروف رقم (٢٠٨٣) (٧/ ٤٣٧) وابن حبان رقم (٤٧٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٧٧).

(٣) الكافية في الجدل (ص ٥٣٢).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ١٣٧).

والأولى البداءة بالأقوى والأوضح؛ لأن المقصود إظهار الحق وتبينه، فيسلك أقرب طريق إلى ذلك، ولأن التدرج من الأغمض إلى الأصرح تطويل يفتح باب المشاغبة والمخاصمة، ويدخل على المناظر بسببه من الإيرادات ربما ما لم يرد على ذهنه، فيعجز عن الخروج منه فيظهر انقطاعه. وإذا بدأت بالأقوى وترجحت حجتك للحاضرين فلا بأس من إيراد سائر الأدلة بعد ذلك وإن غمضت وبعد إدراكها على بعض الحاضرين، من باب تضافر الأدلة وتتميم الفائدة.

قال إمام الحرمين الجويني: «وإياك أن تتعلق عند الاستدلال إلا بأقوى ما في المسألة، ولا يغرنك ضعف السائل، فربما يكون في الحاضرين من يضيّق بقوته في العلم عليك الدنيا»[(١)].

وقال ابن الحنبلي: «فأما قوله سبحانه: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن الأظهر من الأدلة»[(٢)].

وقال ابن القيم في معنى الآية أيضًا: «ويحتمل أن تكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود وأوصله إلى المطلوب»[(٣)].

وقال العلامة بكر أبو زيد: «أظهر نضارة الحق وهيبته، وتزهيق الباطل ووهنه، بترتيب الأدلة حسب القوة، فالبداءة بالدليل الأقوى ثم القوى، فما يليه على سبيل المعاضدة والمناصرة.

ولهذا فاحذر الدخول في رد تقصر قدرتك على دفعه بأقوى الأدلة وحسن ترتيبها فإن فعلت آل الرد إلى هدم الحق. وعند كر المخالف عليك، سيضيق عليك الدنيا بما يصعب عليك التخلص منه»[(٤)].

---

(١) الكافية في الجدل (ص٥٣٤-٥٣٥).

(٢) استخراج الجدل من القرآن (ص٥٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٨٠).

(٤) الرد على المخالف (ص٦٦) من مجموع (الردود).

٢٥. لا يورد ما لم يخبر:

في مقام المناظرة ربما يلوح للمناظر أن يستدل بدليل ورد على ذهنه حال المناظرة أو قد علق بذهنه قبل، إما من سماع أو من قراءة غير متأنية، فلا تفعل ذلك، لأنك قد لا تعلم صحة ثبوت هذا الدليل، وربما لا يظهر لك فساد ووهاء هذا الدليل لما استدللت به، فيقطعك خصمك إما من جهة ثبوته أو من جهة دلالته.

قال الباجي فيما يجتنبه المناظر: «لا يستدل إلا بدليل قد وقف عليه وخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحته وسلامته، لأنه ربما يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه ويبين انقطاعه»[1].

وإيراد ما لا تخبره من قبل ربما يُستحسن في حال انقطاع خصمك وظهور حجتك، فيكون ذلك من باب التتمة والتكملة لسائر الأدلة المذكورة التي حصل بها المقصود في تقرير الحق، أو يُستعمل في حالة إذا ما كانت المناظرة مشاورة، ولم يكن الاجتماع ابتداء لقصد المناظرة في معين، فهنا لا بأس؛ لأن صاحبك يكون معينًا لك في استخراج الصواب.

٢٦. التباعد عن حشو الكلام:

الواجب على المناظر القصد إلى نكتة الحكم بأسهل وأقرب وأوجز عبارة، وهذا شأن الحق كما ذكرنا في أنواع الحجج، فلا حاجة إلى التكلف والتشدق والتعمق في العبارة، وإطالة الكلام بما لا حاجة له، فإن هذا عدول عن مقصود المناظرة، والكلام الحشو لا فائدة فيه وهو دليل على قلة فقه المناظر.

قال إمام الحرمين الجويني: «ولا تعود نفسك الإسهاب والجدال بالباطل والمبادرة إلى كل ما سبق إليه الخاطر واللسان.

حتى إذا أورد ما أورده أو سمع ما سمعه يكون في جميعه على التثبيت والتيقظ، فإن الكلام

---

(١) المنهاج بترتيب الحجاج (ص١٠).

إذا طال واشتمل على الغث والسمين مجته الآذان، وملته القلوب»[١].

كما إن الإطالة سبب الخطأ والزلل، قال الباجي: «ويجتهد في الاختصار فإن الزلل مقرون فيه بالإكثار»[٢].

وقال أبو العتاهية:

الـــــصمت أليـــــق بـــــالفتى مـــــن منطـــــق في غـــــير حينـــــه

لا خـــــير في حـــــشو الكـــــلام إذا اهتـــــديت إلى عيونـــــه[٣]

فالزيادة على المقصود منقصة وعيب، قال أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الخوارزمي: «الزيادة فوق النقصان»[٤].

وقال الخطيب البغدادي في آداب المجادل: «ويكون كلامه يسيرا جامعا فإن التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار، وفي الإكثار أيضا ما يخفي الفائدة، ويضيع المقصود ويورث الحاضرين الملل»[٥].

٢٧. الاحتراز في السؤال:

سؤال المخالف لا يخلو إما أن يكون استرشادًا، وإما أن يكون استدراجًا للخصم.

قال عبد الوهاب بن حسين: «اعلم أن السؤال قد يتعلق بالإفهام ويسمى بالاستفسار وهو طلب بيان المعنى المراد من اللفظ أو نكتة ما فعل على هذا المنوال بأن يقال: لم قيل، أو لم يقال؟

أما الأول: فإنما يسمع إذا كان في اللفظ إجمال أو غرابة بلا قرينة واضحة تدل على المراد،

---

(١) الكافية في الجدل (ص٥٣٠).

(٢) المنهاج بترتيب الحجاج (ص١٠).

(٣) بهجة المجالس (١/ ٦١).

(٤) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (١/ ١٨٥).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٨).

ولذا قيل ما تمكن فيه الاستبهام حسن فيه الاستفهام.

وأما الثاني: فإنما يسمع إذا ما كان فعله مظنة نكتة كما إذا عدل عن الأصل أو المشهور»[١].

وإذا احتاج المناظر إلى سؤال مخالفه على سبيل الاسترشاد لشبهة تعرض له في دليل مخالفه فلا بد له من إظهارها للمستدل ليزيلها عنه، فحينئذ عليه أن لا يُجمل سؤاله ولا يُبهمه.

فإذا بان كلام المناظر وأردت منازعته في تقريره، فإنك تسأل لتستدرجه لجواب تقطعه به، أو يئول إلى ذلك.

وإذا كان الجواب مقدمة لنتيجة ينقطع بها الخصم، فعليه حينئذ أن يحترز في سؤاله بحيث يدل المسئول بسؤاله إلى الطريق الذي يريده أن يسلكه في جوابه، فلا يجعل له فسحة ومتعلقا في غير مراده من خلال سؤاله، حتى لا يحيد عمّا ضمن نصرته، فينقطع عن بلوغ مقصوده.

كما أنه ينبغي أن يحترز عن سؤال تلزمه به الحجة فينقطع.

قال الباجي: «وينبغي للسائل أن يحترز في سؤاله عن كلام تلزمه به الحجة في أثناء المناظرة، فكثيرا ما يطلق السائل سؤاله ثم يرجع عما أطلق فيقبح به»[٢].

٢٨. تلخيص مطولات المناظر:

بعض المناظرين يطيل الكلام إذا كانت له المناوبة في الكلام، فتراه قد أكثر من الحشو وأبعد عن ذكر المقصود وأطال بذكر ما لو تركه لكان هو المحمود.

ويسلك هذه الطريقة أحيانًا بعض الجهلة الذين لا يحسنون تنقيح وتحقيق الخلاف، والبعض الآخر يسلكها حيلة وتعمية على الحاضرين بإيهام العلوم الكثيرة، وتمويهًا على المناظر حتى ينسبه إلى التقصير من عدم الإجابة على جميع إيراداته، وعدم إدراك مستند أقواله، أو يفعل ذلك تشويشًا على مناظره حتى لا يُعلم موضع التلبيس من كلامه لكثرته، وحتى يبدد

---

(١) حاشية على الولدية في آداب البحث والمناظرة (ص١٢٠) باختصار.

(٢) المنهاج بترتيب الحجاج (ص٣٥).

ذهن مخالفه عن نكتة المسألة.

فإذا بُليت بمثل هذا المناظر فدقق النظر في كلام مناظرك ثم اختصر وميّز الغث من السمين والحشو من الصلب، حتى لا ينسبك هو والحاضرون إلى التقصير، ثم مره بلزوم مواضع الحجة.

قال إمام الحرمين الجويني: «وإن طول عليك كلامه بعباراته الطويلة فلخص من جميعها موضع الحاجة إليه، فتحصره عليه ثم تكلم فيه بما يليق به.

لأنك إذا فعلت ذلك زال ما أوهم به الحاضرين من إيراد العلوم الكثيرة.

وإذا لم تحصر عليه موضع الفائدة، موه عليهم بتقصيرك، ولأنك إذا أحصرت عليه في كلامه ألفاظه ومعانيه وأخذت إقراره في كل ذلك فقلت: ألست قلت كذا، ومعناه كذا لم يمكنه الهرب مما يلزمه عليه من كلامك، ولا الرجوع. وإذا لم تفعل ذلك ربما ناكرك عند الإلزام فتسد مواضع الخلل حين تنبه له عند الإلزام»[(١)].

٢٩. قبول الحق والانقياد له:

الحق شريف وهو مراد النفوس الزكية، وتحريه وطلبه وقبوله والانقياد له دليل الإيمان وحسن القصد.

قال أبو محمد بن حزم: «أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره»[(٢)].

وفائدة النظر والمناظرة هو طلب الحق وقبوله لا طلب انتصار النفس والمغالبة، والركون إلى الباطل الوضيع. ومدافعة الحق إذا صار في جهة المخالف صفة من لم تتهذب نفسه.

قال الخطيب البغدادي: «فينبغي لمن لزمته الحجة ووضحت له الدلالة أن ينقاد لها، ويصير إلى موجباتها؛ لأن المقصود من النظر والجدل طلب الحق واتباع تكاليف الشرع، قال الله

---

(١) الكافية في الجدل (ص٥٣٥).

(٢) مداواة النفوس (ص ٣١).

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]»[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب: «المشايخ والعارفون كانوا بقبول الحق من كل من قال الحق صغيرًا كان أو كبيرًا، وينقادون لقوله»[(٢)].

ولنا فيمن سبق قدوة، فلما تناظر الإمام مالك مع أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ولزمت الحجة أبا يوسف قبلها.

قال الحافظ ابن كثير: «ولما تناظر هو -أبو يوسف- ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع، وزكاة الخضروات، احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم يكن الخضروات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين.

فقال أبو يوسف: لو رأي صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا إنصاف منه»[(٣)].

وهكذا كان السلف إذا ظهر لهم الحق انقادوا له وقبلوه وإن كان على لسان مخالفهم، لحسن قصدهم ولما هو عليه من الإنصاف.

ومن ذلك أيضًا، المناظرة بين إسحاق والشافعي في كرى بيوت مكة:

قال إسحاق بن راهويه: «جالست الشافعي بمكة فتذاكرنا في كرى بيوت مكة وكان يرخص فيه، وكنت لا أرخص فيه، فذكر الشافعي حديثا وسكت، وأخذت أنا في الباب أسرد.

فلما فرغت منه، قلت لصاحب لي من أهل مرد[(٤)]-بالفارسية-: مردك ما لا نيست -قرية

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٧).

(٢) الحكم والجديرة بالإذاعة (ص ٣٥).

(٣) البداية والنهاية (١٠/ ١٩٥) حوادث سنة ١٨٢هـ، الاتباع (ص٤٠).

(٤)مرد: اسم قرية قال ابن الأعرابي: سقى الله حيا دون بطنان دارهم وبُورك في مرد هناك. تاريخ البلدان (١/ ٤٤٨)، «وأما قولهم مردان وزنان في جمع مرد وهو الرجل وزن وهي المرأة وهما ناحيتان كبيرتان بالري في جبالها فيهما حصن مانع يمتنع على ولاة الري فضلا على غيرهم» تاريخ البلدان (٤/ ٣٥٣).

بمرو- فعلم أني راطنت صاحبي بشيء هجنه فيه، فقال لي: أتناظر؟ قلت: وللمناظرة جئت.

قال: قال الله عز وجل: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]. نسب الدار إلى مالكها؟ أو غير مالكها؟

وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «**من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»(١)، «**وهل ترك لنا عقيل من رباع؟**»(٢) نسب الدار إلى أربابهم أو غير أربابهم؟

وقال لي: اشترى عمر بن الخطاب دار السجن من مالك أو من غير مالك؟

فلما علمت أن الحجة قد لزمتني، قمت»(٣).

فانظر إلى إنصاف إسحاق كيف أقر على نفسه بلزومه الحجة، ولم يكابر، ثم انظر إليه كيف بثه في الناس ولم يخفه خشية أن يقال: خصم، بل أشاع ذلك وأذاعه حتى ينتفع الناس بالمناظرة وحتى ينزع الناس عن قوله الذي ربما تابعه الناس عليه حيث أقر بأنه مرجوح.

وهذا أبو الحسن الأشعري حضر بعض المجالس وناظره إنسان فانقطع في يده، وكان معه رجل من العامة فنثر عليه لوزًا وسكرًا، فقال له الأشعري: ما صنعت شيئا، خصمي استظهر عليّ وأوضح الحجة وانقطعت في يده، كان هو أحق بالنثار مني(٤)، ثم إنه بعد ذلك أظهر التوبة والانتقال عن مذهبه(٥).

---

(١) رواه مسلم باب فتح مكة رقم (١٧٨٠)، وأبي داود باب ما جاء في خبر مكة رقم (٣٠٢١)، وحسن روايته الألباني، والنسائي والدارقطني رقم (٢٣٣) وفي مسند الطيالسي (٢٤٤٢) والمعجم الكبير ومسند البزار ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة وسنن البيهقي.

(٢) رواه البخاري باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها رقم (٢٨٩٣)، ومسلم باب النزول بمكة للحاج وتوريث دورها رقم (١٣٥١)، وأبي داود (٢٩١٠)، وابن ماجة (٢٩٤٢)، وأحمد والدارقطني، والمعجم الكبير وعبد الرزاق والبيهقي وشرح معاني الآثار والآحاد والمثاني وكنز العمال.

(٣) مناقب الشافعي لابن أبي حاتم (ص ١٨١).

(٤) النثار حول الظفر في المجادلة لا أصل له.

(٥) تبيين كذب المفترى (ص ٩١).

قال الحافظ ابن عساكر[١]: «هذه الحكاية تدل على قوة أبي الحسن رحمه الله في المناظرة، واطراحه فيها ما يستعمله بعض المجادلين من المكابرة، وتنبئ عن وفور عقله وإنصافه لإقراره بظهور خصمه واعترافه».

بل وجدنا من المنصفين العقلاء من أهل البدع من ينقاد للحق إذا ظهر له الصواب ولاح له الحق على لسان مخالفه.

قال أبو على التنوخي: حدثنا أبو الحسن بن الأزرق قال: «كنت بحضرة الإمام أبي عبد الله بن الداعي فسأله أبو الحسن المعتزلي عما يقوله في طلحة والزبير، فقال: أعتقد أنهما من أهل الجنة، قال: ما الحجة؟ قال: قد رويت توبتهما، والذي هو عمدتي أن الله بشرهما بالجنة.

قال: فما تنكر على من زعم أنه عليه السلام قال: إنهما من أهل الجنة ومقالته، فلو ماتا لكانا في الجنة، فلما أحدثا زال ذلك؟ قال: هذا لا يلزم، وذلك أن نقل المسلمين أن بشارة النبي ﷺ سبقت لهما، فوجب أن تكون موافاتهما القيامة على عمل يوجب لهما الجنة وإلا لم يكن ذلك بشارة.

فدعا له المعتزلي واستحسن ذلك، ثم قال: ومحال أن يعتقد هذا فيهما، ولا يعتقد مثله في أبي بكر وعمر، إذ البشارة للعشرة»[٢].

ولا يصدك عن قبول الحق صدوره عمن هو دونك علمًا أو شهرة أو سنًا، فإن هذا من عمل الشيطان، والحق يجب قبوله مهما كان قائله.

قال الشوكاني: «ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق أن يكون المتكلم بالحق حدث السن بالنسبة إلى من يناظره أو قليل العلم أو الشهرة في الناس، والآخر بعكس ذلك، فإنه قد تحمله حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل أنفة منه عن الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سنًا أو أقل منه علمًا أو أخفى منه شهرة، ظنًا منه أن في ذلك عليه ما يحط منه وينقص ما هو فيه.

---

(١) تبيين كذب المفترى (ص ٩١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١١٥).

وهذا الظن فاسد فإن الحط والنقص إنما هو في التصميم على الباطل، والعلو والشرف في الرجوع إلى الحق بيد من كان وعلى أي وجه حصل»[١].

وقد لخص الأستاذ/ محمد محيى الدين عبد الحميد مجموعة من هذه الآداب في رسالة الآداب في علم أدب البحث والمناظرة فقال تحت عنوان آداب المتناظرين:

وينبغى للمتناظرين أن يلتزما الآداب الآتية:

- أن يتحرزا من إطالة الكلام ومن اختصاره.
- أن يتجنبا غرابة الألفاظ وإجمالها.
- أن يكون كلامهما ملائمًا للموضوع.
- ألا يسخر أحدهما من صاحبه.
- أن يقصد كل منهما ظهور الصواب ولو على يد صاحبه.
- ألا يتعرض أحدهما لكلام صاحبه قبل أن يفهم غرضه منه.
- أن ينتظر كل منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه[٢].

(١) أدب الطلب ومنتهى الإرب (ص ٦٦).

(٢) رسالة الآداب (ص ١٧٦-١٧٧).

الركن الثالث
الحوار شروطه وآدابه

للحوار آدابه وشروطه التي بها يستقيم ويتم، وقد جمعتها في مطلبين وهما:

المطلب الأول: شروط الحوار.

المطلب الثاني: آداب الحوار.

المطلب الأول
شروط الحوار

١. تحديد أهداف الحوار:

يتطلب الأمر تحديدًا واضحًا لأهداف الحوار حتى تكون هذه الأهداف دليلًا للمتحاورين لا يحيد عنها طرف من الأطراف، بل لا يجوز التقليل من أهمية هذا التحديد الواضح للأهداف، إذ بدونه سنجد كل طرف يتحدث في غير الذي يتحدث فيه الآخر، الأمر الذي يبعد المتحاورين عن إمكان الوصول إلى أي شيء مفيد[١]. وإنما يهدف الحوار إلى تحقيق منافع مشتركة للطرفين وأن يؤدى إلى تأمين المصالح التي يحرصان عليها والتي لها صلة بالتقدم في مجالات الحياة.

٢. الحكمة في الحوار:

فمن شروط الحوار الجاد الهادف أن يتصف بالحكمة، والحكمة هي جماع العلم والمعرفة، ومن عناصرها الفطنة وحسن الفهم وعمق الوعي وسعة الإدراك والرشد، والتنبه، والقصد والاعتدال؛ قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وإذا كانت الحكمة هنا قرينة الدعوة، فإنها من شروط الحوار أيضا. وكما ترتبط الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كذلك الحوار قرين الحكمة والموعظة الحسنة في جميع الأحوال، وهذا الارتباط هو من قبيل ارتباط المنهج

---

(١) الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب د. ماجد عبدالسلام إبراهيم (ص١٠٣).

والمضمون بالوسيلة والأسلوب، فالحوار هو المضمون، والحكمة هي المنهج، بينما الوسيلة والأسلوب هي الموعظة الحسنة. وفي السياق القرآني ترتبط الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن حيث يقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وينطبق هذا على الحوار انطباقا كاملا، وإذا كانت المجادلة: وهي مقارعة الحجة بالحجة تأتي في المرتبة الثانية من مراتب الدعوة إلى الله، فإن الدعوة إلى الله لا تتم على الوجه الشرعي إلا إذا كانت صادرة عن الحكمة، ومقترنة بها، كذلك الحوار لا يكون إلا بالتي هي أحسن، أي أحسن الوسائل، وأقوم الأساليب وأصح الطرق بالذات والآخر لكي يسود الحوار حياتنا الثقافية ينبغي أن تكون هناك شروط ثقافية تؤخذ في الاعتبار أو تفترض مقدمًا أو ينبغي أن تكون في اعتبار الجو الثقافي العام، إذا أردنا أن تزدهر الحياة الثقافية. وحين نقول «افتراضات» لا نعنى ذلك النوع من الافتراضات الخيالية، إنما نعني من تلك الافتراضات صفات التكافؤ بين المتفاوضين في الثقافة والموضوع.

٣. تحديد المصطلحات وتبيانها:

ولطالما أخفق الحوار لسوء فهم انتاب المفاهيم المتداولة فيه، إذ يتكلم طرف عن مصطلح ما بتعريف قائم في ذهنه، يختلف عن ذاك التعريف الذي قام في ذهن الطرف الآخر، ولو أنهما اتفقا لقطعا شوطا في الوصول إلى المراد[(١)].

٤. أن تكون المسألة المتحاور عليها خلافية[(٢)]:

وهذا الشرط واضح في بداهة العقول، لأن المتفق عليه ليس بمحل للنزاع، وحقيقة المحاورة أن كل واحد من المتحاورين يضاد الآخر في مذهبه.

قال ابن عقيل الحنبلي: «وإنما بدأت بذكر الخلاف، لأن الجدل ينبنى عليه، ولا يكون

---

(١) الحوار الحضارى والثقافى فى خدمة السلام بحث للدكتور/ محمود عكام فى مؤتمر مكة المكرمة الخامس من ٤-٦/ ١٢/ ١٤٢٥هـ برابطة العالم الإسلامى.

(٢) أصول الجدل والمناظرة (ص٣١٤).

الجدل مع الاتفاق». وقال أيضًا: «ألا ترى أن كل متفق عليه من خبر أو حكم لا يصح فيه النزاع والمماراة»[١].

وقال العلامة عبد الرحمن السعدى: «المحاجة هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك»[٢].

وقال الطاهر بن عاشور: «فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى»[٣].

ولذلك تجد العلماء يعرضون عمن يشاغب في مسائل الاتفاق، ويكتفون بالإشارة إلى ذلك، دون الحاجة إلى الخوض في أدلة الإجماع، بل يجعلون مسائل الإجماع أصل ترد إليه مسائل النزاع.

من ذلك ما ذكره ابن رجب في مسألة دخول أعمال الجوارح في اسم العمل، فقال رحمه الله: «وأما أعمال الجوارح فلا ريب في دخولها في اسم العمل، ولا حاجة إلى تقرير ذلك، فإنه لا يخالف فيه أحد»[٤].

٥. تساوى الرتبة في العلم بين المتحاورين[٥]:

وذلك بأن يحاور العالم مثله، لأنه إذا اختلفت الرتبة بين المتحاورين، لاسيما إن كان الاختلاف كبيرًا، فإن ناقص العلم والفهم والرتبة إذا رُد إلى بعض مسائل وفروع المسألة المتحاور فيها، أو رُد إلى مباحث وجزئيات علمية دقيقة متعلقة بالمسألة المتحاور فيها لا ينتبه لها أو قد لا يحيط بها علمًا وإدراكا، فلا يحصل الانتفاع من محاورته.

قال الحافظ ابن عبد البر: «وقالوا لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا

---

(١) كتاب الجدل على طريقة الفقهاء (ص٢٤١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠٢).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٧٠).
(٤) فتح البارى (١/ ١٢١).
(٥) أصول الجدل والمناظرة (ص٣١٥).

متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والفهم والعقل والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة»[١]. والواجب على من لم يكن في رتبة من هو أعلم منه أن يباحثه استرشادًا، ويجلس بين يديه جلوس الطالب بين يدي شيخه، لا جلوس النظراء.

قال ابن عقيل الحنبلي: «لا يتجادل إلا النظيران، ومن لا يكون نظيرا فإنما هو مسترشد وسائل»[٢].

وكان العلماء منتبهين إلى هذا الشرط، فلا يقدم أحدهم على مناظرة من هو فوقه في العلم.

قال الفراء: «قال لي رجل: ما اختلافك إلى الكسائى وأنت مثله في النحو! فأعجبتني نفسي فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء، فكأني كنت طائرا يغرف بمنقاره من البحر»[٣].

وهذا الشرط واضح من مادة «المناظرة» اللغوية، فهي مأخوذة من النظر، ومن النظير أي المقارب له والند.

وهذا أبو على الظهيرى لما طلب المجير البغدادى تلميذ الشهرستانى مناظرته أجاب بقوله: «المناظرة اشتقت من النظير، وليس هذا بنظيري»[٤].

وقال الإمام محمد بن خزيمة رحمه الله فيمن يُعارض العلماء وهو ليس في رتبتهم: «فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوج منه إلى الترؤس والمناظرة»[٥].

٦. اتفاق الطرفين في الكليات التي يرد إليها التنازع[٦]:

وهذا الشرط إذا عدم لم ينتفع بالحوار والمناظرة، وتعطلت ابتداء، لأن الحوار والمناظرة في الوجوه والمسائل الجزئية لابد أن ترد إلى كليات متفق عليها، وإذا لم يتفق على الكليات تعطل

---

(١) جامع بيان العلم (٢/ ١٩٧٢).
(٢) كتاب الجدل (ص٢٤٣).
(٣)بغية الوعاة (٢/ ١٩٨٣).
(٤) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٢/ ٨٥٩).
(٥) التوحيد (١/ ١٩٩).
(٦) أصول الجدل والمناظرة (ص٣١٨).

الحوار وصار شغبا، فهذه الكليات حاكمة فلابد أن تكون مسلمة عند الطرفين لقطع النزاع، قال الشاطبى: «المناظر المستعين، فلا يخلو أن يكون موافقا له في الكليات التي يرجع إليها ما تناظرا فيه أو لا. فإن كان موافقا له صح إسناده إليه واستعانته به، لأنه إنما يبقى له تحقيق مناط المسألة المناظر فيها، والأمر سهل فيها». وقال: «وإن كان المناظر مخالفا له في الكليات التي ينبنى عليها النظر في المسألة فلا يستقيم له الاستعانة به، ولا ينتفع به في مناظرته، إذ ما من وجه جزئي في مسألته إلا وهو مبنى على كلى، وإذا خالف في الكلى ففي الجزئي المبنى عليه أولى، فتقع مخالفته في الجزئي من جهتين، ولا يمكن رجوعها إلى معنى متفق عليه، فالاستعانة مفقودة»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وإن لم تكن بينة معروفة، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية، والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما تسلمها الناس، وهى برهانية، وإن كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإن الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى عليه السلام من أهل الكتاب، ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩١]. وقد بيَن البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع[(٢)].

والقواعد الكلية لا تخفى في الغالب على العلماء، ولذلك تجرى المحاورة والمناظرة في الجزئيات بالرد إلى الكليات الحاكمة القاضية فينتفع بالمحاورة ويظهر الحق.

قال الشاطبى: «فاعلموا أن الاختلاف في بعض القواعد الكلية لا يقع في العادات الجارية

---

(١) الموافقات للشاطبى (٤/ ٣٣٠-٣٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٥- ١٦٦).

بين المتبحرين في علم الشريعة الخائضين في لجتها العظمى، العالمين بمواردها ومصادرها.

والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثاني على ذلك»[١].

ويصح أن تُرد الجزئيات إلى كليات مختلف في ثبوتها كالقياس والاستصحاب وشرع من قبلنا إلى غير ذلك من الأدلة المختلف فيها.

فإلغاء الأصول المختلف فيها قد يعطل بعض الجزئيات عن الأدلة الشرعية، وتسقط بذلك المناظرة فيها.

قال أبو الوليد الباجي وهو يتحدث عمن يمنع القياس على أصل مختلف فيه كالشفعة في الثمرة: «وليس كلامي في هذه المسألة مع من يخالفني في الأصل، ولو جاز ما لزمت لم تصح مناظرة، فإن أكثر الأصول التي يرد إليها المتناظران مختلف فيها، ويصح ردهما إليها لاتفاقهما على ثبوت أحكامها وخطأ من خالف فيها»[٢].

وقال ابن عقيل الحنبلي: «ومن المختلف فيه ما يكون حقا، ولا يخرجه الخلاف فيه عن جواز البناء عليه، والإسناد إليه»[٣].

وقال يوسف بن عبد الرحمن الجوزي: «قال قوم: من شرط صحة الاستدلال بالنص موافقة الخصم على كونه ظاهرا في الدلالة، وقال آخرون: لا يجوز ممانعة المستدل في ظهور ما ادعاه ظاهرا إذا كان مختلفا فيه، لأنه ينتقل الكلام إلى مسألة أخرى.

والرأي الحق أن لا تشترط موافقة الخصم على كونه ظاهرا، لما في ذلك من الحرج، إذ أكثر أوصاف الأدلة مختلف فيها، وأن يمكن الخصم من الممانعة إذا انتمى إلى مذهب ذي مذهب، ولم يقصد العنت. ومن هذا القبيل استدلال الحنبلي على الشافعي بالمرسل»[٤].

---

(١) الإعتصام (٢/ ١٧٢).

(٢) المنهاج في ترتيب الحجاج (ص١٥٧).

(٣) الواضح في أصول الفقه (١/ ٣٢٥).

(٤) الإيضاح لقوانين الاصلاح (ص٥٢).

٧. وضوح الغاية من الحوار[١]:

هل الحوار لمجرد الحوار؟ أم أن هناك غاية يراد تحقيقها والوصول إليها؟ وأخشى ما أخشاه أن يغدو الحوار هواية ووسيلة تسلية، وأن يعزل عن دوره البناء في خدمة المجتمع وتطويره، وتحديد أهداف الحوار حتى تكون دليلا للمتحاورين لا يحيد عنها طرف من الأطراف. ولا يجوز التقليل من أهمية هذا التحديد الواضح للأهداف حتى لا يذهب الحوار سدى.

٨. تساوى الأطراف من حيث الاعتبار وفى أسباب القيام بالحجة:

يجتمع المتحاورون تحت قنطرة الحوار دون سواها، وتسقط سائر الصفات والألقاب، وتتهاوى القوى المستكنة، بحيث يكون كل طرف نِدًّا للآخر، فالحوار بين طرف قوى يدرك مدى قوته، وطرف ضعيف على وعى بضعفه يجعل الطرف القوى في وضع يجعله يملى شروطه على الطرف الضعيف الذي لا يكون لديه مجال للمناورة. قال ابن عقيل الحنبلى في شروط الحوار والمناظرة: «ومن ذلك استواؤهما في الأمن والصحة والسلامة، وأن لا يكون أحدهما محصورا بخوف أو حشمة وهيبة، والآخر مبسوطا بأنس واسترسال». وقال أيضًا: «واحذر المحافل التي لا إنصاف فيها في التسوية بينك وبين خصمك في الإقبال والاستماع»[٢] ومن هنا لا يكون هناك حوار، بل بالأحرى يكون إرغاما عن طريق القوة، وإن كان في الظاهر يأخذ شكل الحوار.

ومن أنس من نفسه جرأة على الصدع بالحق والفناء بملاحظة عظمة الله عن عظمة وهيبة صاحب القوة والسلطان فليقدم على الحوار والمناظرة، كما فعل كليم الله موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وكما فعل إمام الحديث إبراهيم بن إسحاق الحربى مع المأمون، فجعل يناظره في الفقه، وجعل إبراهيم بن إسحاق الحربى يخالفه، ويقول: «القول في هذه المسألة

---

(١) الحوار الحضارى والثقافى فى خدمة السلام بحث للدكتور/ محمود عكام فى مؤتمر مكة المكرمة الخامس من ٤-٦/ ١٢/ ١٤٢٥هـ برابطة العالم الإسلامى.

(٢) أصول الجدل والمناظرة فى الكتاب والسنة (ص٣١٧).

خلاف هذا، فغضب المأمون فلما كثر خلافه قال: عهدي بك كأنك تذهب إلى أصحابك فتقول: خطأت أمير المؤمنين، فقال إبراهيم الحربى: والله يا أمير المؤمنين إني لأستحي من أصحابي أن يعلموا أنى جئتك»[١].

٩. نصب الحاكم:

الحاكم يقضى بين المتخاصمين، ويمنع اللجاج إذا استرسل المتحاوران في العناد والمكابرة والتدافع، فيقطع الشجار عند اختلاف الأنظار.

وكذلك يقضى الحاكم لصاحب الحق، ولاسيما إن بقى كل واحد من المتحاورين على استرجاح حجته. قال العلامة ابن الوزير[٢]:

«وقد تنازع عليٌّ عليه السلام وأخوه جعفر الطيار بن أبى طالب، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ في بنت حمزة بن عبد المطلب، فما اعترف أحد منهم لخصمه بعد أن أدلى كل واحد منهم بحجته، بل بقى كل على استرجاح حجته حتى حكم رسول الله ﷺ بحكمه، وأثنى على كل واحد منهم بفضله».

ومن وظائف الحاكم أنه يوقف من صادر حق مخالفه في الحوار، وكذلك من حاد في الجواب، ومن أدلى بدليل في غير محل النزاع، وكذلك يزجر من أساء الأدب في الحوار، ويسكن من روع من استشاط غضبًا.

من ذلك أن الإمام ابن الحنبلى رحمه الله ناظر أحد الفقهاء بحضرة السلطان صلاح الدين في مسألة الخضاب بالسواد وفى مسألة استيلاء الكفار على أموال المسلمين، فأكثر ذلك الفقيه من الصياح، فصاح السلطان عليه: «اسكت، صيحة مزعجة، فسكت، ثم قال لابن الحنبلى: تمم كلامك»[٣].

وهذا القاضي أبو الطاهر الذهلى كان له مجلس يجتمع إليه المخالفون، ويتناظرون بحضرته

---

(١) مارواه الأساطين فى عدم المجيء إلى السلاطين (ص٧٣).

(٢) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ص٥٦- ٥٧).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ١٩٤).

ويقضي ويحكم بينهم[١].

والحاكم ينبغي أن يكون عالمًا منصفًا عدلًا غير متهم بشيء من الجهل والهوى.

قال القحطاني رحمه الله[٢]:

ناظر أديبًا منصفًا لك عاقلًا ... وأنصفه أنت بحسب ما تريان

ويكون بينكما حكيم حاكمًا ... عدلًا إذا جئتاه تحتكمان

وأُضيف إلى نصب الحاكم تحديد الحكم والمرجع في الحوار، وقد رضينا القرآن والسنة حكما، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٥٩-٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠].

---

(١) تاريخ بغداد (١/ ٣١٣).

(٢) النونية (ص٤٠).

١٠. احترام المتحاورين بعضهم لبعض:

لأن ما بينهما خلاف، وخلاف إنسانى، والخلاف يجب ألا يفسد ما بيننا من روابط بشرية فهل يحوله الإنسان إلى خلاف وحشى يبتعد عن الإنسان ومساره وطبيعته؟ هل نستبدل بالحوار المغنى للإنسان حوارًا يقربه من الحيوان؟!

١١. الإنصاف[١]:

بإقرار ما هو خطأ، وما هو صواب، وبغياب الإنصاف تغيب حتما الحقيقة، وبإرادة الإنصاف تبدو الحقيقة، فالقضية موضوعية، وليست ذاتية.

١٢. تحديد القضية المتحاور عليها وعناصرها:

يقتضى الحوار أن تكون هناك قضية يحاور الجانبان بشأنها، ولابد في هذه الحالة أن تحدد بدقة عناصر القضية حتى لا يكون الحوار في حلقة مفرغة، كل يتحدث بلغة مختلفة وبمفاهيم مختلفة لا تربط بينها أرضية مشتركة.

١٣. توفير المناخ المناسب للحوار:

من الضروري أن يكون هناك مناخ مناسب للحوار ينأى عن الأحكام المسبقة، والمفاهيم المغلوطة، ويتحرر من العقد النفسية سواء كان ذلك يتمثل في عقدة التفوق في جانب أو مركب النقص في جانب آخر، فالنعرات الاستعلائية خطرها في أي حوار لا يقل عن خطر الشعور بالعدوانية[٢].

---

(١) الحوار الحضارى والثقافى فى خدمة السلام بحث للدكتور/ محمود عكام فى مؤتمر مكة المكرمة الخامس من ٤-٦/ ١٢/ ١٤٢٥هـ برابطة العالم الإسلامى.

(٢) الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب للدكتور ماجد عبد السلام إبراهيم (ص ١٠٣).

١٤. السمو في الحوار:

أن يكون الحوار ساميًا متحضرًا، ومترفعًا عن الموضوعات التي هي مثار اختلافات دائمة لا سبيل إلى إزالتها إلا بتنازل طرف للطرف الآخر عن أحد ثوابته العقدية، بحيث يتجنب المسائل ذات الحساسية الفائقة التي من شأنها إذا ما أثيرت في الحوار أن تؤدى إلى إيقافه أو التأثير على إيجابياته.

١٥. العلم والإحاطة بالآخر:

لابد من دراسة العقلية التي نتحاور معها في إطار بيئتها وبنيتها الدينية، والثقافية، والاجتماعية، ومعرفة نطاق معتقداتها ورآها من حيث الميول والنوازع والعادات والتقاليد.

١٦. ترك التعصب بالباطل:

أن يُعفى من الاشتراك في الحوار كل من يتعصب لرأيه دون حجة مقبولة تشفع له في هذا التعصب.

١٧. إعطاء كل محاور حقه في عرض ما عنده:

وأن يأخذ كل مشترك في الحوار حقه كاملًا في عرض رأيه دون أي مقاطعة أو تشويش، أو إظهار لأي ملل أو استخفاف أو استنكار.

١٨. ترك الصوارف:

ضرورة التركيز على قضية الحوار الأصلية وعدم إضاعة الوقت في قضايا أخرى فرعية قد تبعد الذهن عن القضية الأصلية.

١٩. استمرارية الحوار:

استمرار الحوار إلى تحقيق الغاية منه دون أي صورة من صور الانقطاع.

٢٠. تبنى قضية التفاهم المشترك:

ليس بدعًا من الأمر أن نقول: إن مهمة تبني قضية «الفهم المشترك» مهمة شاقة وخاصة

في عالمنا الذي نعيشه، فإن فيه من الخصومات السياسية، والصراعات «الأيديولوجية» ما يجعل الرغبة في التعاون نحو «لغة الفهم المشترك» ليس من السهل الحصول عليها، أو كما يقال: إنه سعي نحو وضع مضاد للثقافة التي تمثل أحد مظاهر الصراع بين القوي المتصارعة، وتغييره يحتاج إلى تغيير فعلى في طريقتنا للاقتراب من حل القضايا المختلف عليها. من هنا كان الأخذ بلغة الحوار عملا شاقا، لكنه مفيد، فهو يساعد المتحاورين على عرض ما لديهم من أفكار ومعلومات، وإبراز ما فيها من العلاقات المتبادلة التي قد تظهر للوهلة الأولى أنها آراء متناقضة، أو أنها محصورة بين قولنا: إما هذا، وإما ذاك، لكن يمكن بالحوار أن نتعاون على ترتيب ما لدينا من أفكار لنحظى «بالفهم المشترك»، وإذا ما استطعنا أن نحظى بهذا المستوى العالي من «الفهم المشترك» استطاع المرء أن يمارس ملكاته الرفيعة من البداهة والحكمة والقيم الفاضلة، ويصبح من الممكن فحص جزئيات القضية المطروحة بين المتحاورين والانتقال من المنظور الضيق إلى الأشمل دون إخلال «بالهدف المشترك»، أو قضية «المصالح المشتركة». ومن تبني رؤية «الفهم المشترك» يتأكد مبدأ التعاون المشترك الذي يزيد من التفاعل الخلاق، الذي يساعد على تلطيف اتجاهات الخصومة مما يعزز الاتجاه نحو اكتشاف صنع «القرار المشترك». وإذا لم نتبن لغة الحوار بيننا انقلب المتحاورون إلى مواقف منفصلة أنشأتها أطراف ذات اهتمامات مختلفة، وأفكار مسبقة عن الحل الصحيح، وفي الأغلب تكون النتيجة تنبؤات مختلفة[1].

(١) الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب د. ماجد عبد السلام إبراهيم (ص١٠٤- ١٠٦) بتصرف.

المطلب الثاني
آداب الحوار

الحوار الهادئ الهادف المثمر هو الذي يتحلى بالآداب الشرعية التي قررتها شرائع السماء، وهذه الآداب من الكثرة بمكان حيث نذكر منها ما يلي:

١. مراعاة الطبائع النفسية:

يعتز الإنسان برأيه وفكرته، وإن كانت خاطئة. والمعاندون أكثر الناس تشددًا في هذا المجال. والجدل يراعي هذه الناحية في مناقشاته حيث نرى في طرق الجدل ما عرف بطريقه «مجاراة الخصم» ومجمل هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه، وإنما هي بعيدة عنه. ومن أمثلة هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١٠-١١]. فدعوى الخصم أن الرسل بشر، والبشر لا يستطيعون أن يتلقوا وحي الله، وهم بدعوى الرسالة يريدون صد أقوامهم عن عبادة الآباء والأسلاف، وبملاحظة رد الرسل عليهم نرى التسليم للخصوم بأنهم بشر ويذكرون أن البشرية لا تتنافى أن يمن الله بالرسالة على من يشاء من البشر.

وفي هذا النوع من الجدل استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه، وربما كان من الممكن بهذه الطريقة ثنيه عن الإنكار بعد بيان فساد العلاقة بين القضية المسلمة والنتيجة التي رتبت خطأ عليها، ويقول الشهرستاني: «اعلم أن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج»[(١)].

وفي «مجاراة الخصم» تقدير للفكر والعقل السليم عن طريق تقدير قوله الصادق وعقله المكين.

ومن طرق الجدل التي تساير الطبائع الإنسانية وترضى الغرائز البشرية ما عرف بـ«قياس

---

(١) الملل والنحل (٢/ ٥٦).

الخلف» وهو جدل يثبت الأمر بإبطال نقيضه، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فقد أثبت قول الله هذا أن القرآن من عند الله تعالى بإبطال أنه من عند غير الله، لأنه خلا من الاختلاف اللازم له لو كان عند غير الله.

ومن الطرق التي تراعي هذه الطبائع، ما نلمسه من بعض صور الجدل التي تتجه إلى مناصحة المدعو، وإرشاده، والأخذ بيده إلى الصواب، وتوجيه نظره إلى ما حوله ليأخذ منه الفائدة، وهذه الصور تراعي الجدل في ثناياها وترد عليها في إجمال وتدليل. وأمثاله قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٩].

فقد لاحظت هذه الآية قول الخصوم من غير أن توردها وردّت عليها في إيجاز ودليل ملموس. وبذلك تأخذ بيد المستمع إلى الحق عن طريق وضع الأدلة السهلة الواضحة.

ومن الطرق التي راعت طبائع الناس مجاملة الخصوم وعدم الرد المباشر على دعواهم مع عدم التسليم بها، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]. وذلك لأن المجاملة أدعى إلى الطاعة وأقوى في التأثير.

٢. ملاحظه التنوع البشرى:

يختلف الناس في مجادلاتهم، فمنهم المجادل العنيد، ومنهم المناقش السهل ولقد راعي الجدل هذه الاختلافات، فمع العناد يلجأ إلى إفحام الخصم وإلزامه، ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة، ويبينها له في وضوح، فلقد كان المعاندون يطلبون في إصرار أن يكون الرسول ﷺ مَلكا لإزالة اللبس من إرسال البشر فرد الله إصرارهم في وضوح وإيجاز وعرّفهم أنه لو أرسل مَلكا على صورته الملكية لهلك الناس من رؤيته، ولو جعله على صورة البشرية يعايشهم ويدعوهم في بشريته هذه لبقي اللبس وطلبوا مَلكا آخر، وهكذا في تسلسل لا ينتهي وهو

محال. وعليهم بعد ذلك أن يسلموا بالرسول البشر.

ومن أمثلة هذه المراعاة قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفي هذه الآية بيان لإنكار اليهود إنزال الوحي على بشر وهو محمد ﷺ بينما هم يؤمنون برسالة موسى عليه السلام. وقد ردّ الله عنادهم وأفحمهم بأقصر الطرق بسؤالهم عن المسلمات عندهم من نوع ما ينكرون، ولذلك سألهم عن الكتاب الذي جاء به موسى عن مَن أنزله عليه؟

وحينما يبدأ المعاند في إنكار المسلمات بإلقاء شبهة عليها، نجد القرآن الكريم -لأن قصده الحق- يأتي بطريقة تعرف بـ«الانتقال» حيث يترك ما ألقيت عليه شبهة الخصم وينتقل إلى ما لا شبهة فيه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن النمرود قد جادل في الأمور المسلمة وادعى قدرته على الإحياء والإماتة، وبرغم بطلان ادعائه، فإن إبراهيم عليه السلام لا يناقشه فيه، بل ينتقل إلى استدلال آخر لا يجد الملك فيه وجهًا يتخلص به منه؛ فقال عليه السلام كما حكى القرآن عنه: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وفى هذا إلزام وإفحام للملك المعاند المكابر؛ لأنه لا يظنه أن يقول: «أنا الآتي بالشمس من المشرق لأن من أسن منه يكذبه»[1].

ومن هذا الانتقال قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا

(١) من بلاغة القرآن (ص٣٧٥).

﴿ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وفي هذه الآية إفحام للمنافق وردٌّ لقوله الذي يزعم عزة المنافقين وذلة المؤمنين، إذ تثبت عزًا وذلًا ولا تنكرهما، لكنها تجعل العزة للمؤمنين والذلة للمنافقين، وبعد ما تصحح المفهوم السليم يصدق قولهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾.

أما إن كان الخصم سهلًا لينًا فإن الجدل يلين معه في المناقشة، ويرده إلى أمور مسلمة ابتداء، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فقد استدل سبحانه على بطلان أن يكون له ولد بأمرٍ معروف مألوف لا يماري فيه أحد، وهو أنه لو كان له ولد لكانت له صاحبة، ولم يَدَّعِ أحد أنه له صاحبة فيجب أن لا يكون له ولد[(١)].

وأما إن كان الخصم من المكابرين، الذين لا يستفيدون مطلقًا، فإن الجدل يضع معهم حدًا، حتى لا يخرج الجدل عن الحسنى التي أمر الله أن يتحلى بها جدل الدعوة، وذلك قوله تعالى للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. فقد وضع هذا الجدل حدًا للنقاش مع هؤلاء الكافرين المكابرين، يقول الإمام الخازن: «والمخاطبون بهذه السورة كفرة مخصوصون قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون»[(٢)]. لذلك أمر الله رسوله أن يترك الجدل معهم ويعرفهم أن له دينه ولهم دينهم والأمر لله بعد أن أوضح الحجة وألزمهم المحجة[(٣)].

٣. الترغيب والترهيب:

يراعي الجدل القرآني هذا النوع في الخطاب؛ لأن الإنسان يحب الخير ويسعي إليه ويكره الألم وينفر منه، ولهذا الغرض يسوق القرآن حوارًا يجري بين أهل الجنة وأهل النار، فيقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا

---

(١) تاريخ الجدل (ص٦٩).

(٢) لباب التأويل (٤/ ٤٦١).

(٣) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها (ص٤٠٨).

﴿ وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤].

والوعد المسئول عنه أشياء جاءت على ألسنة الرسل تظهر في الآخرة كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، ومجرد اعتراف الكافرين بوقوع الوعود به يثير وجدان الكافرين ويجعلهم يرهبون مصيرهم بسبب الكفر ويحاولون النجاة.

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وهذه الآية تبين أن الجنة فوق النار. وأن ماءها العذب، ورزقها اللذيذ كثير، فيه فيض وسعة، إلا أنه مع كثرته محرم على الكافرين الذين أهملوا الرسالات واتبعوا الهوى وجهلوا أن لهم هذا اليوم الموعود[1].

٤. الصبر على الأذى:

على الدعاة إلى الله أن يوطنوا أنفسهم على الصبر على ما يلقونه من أعداء دعوتهم؛ ذلك لأن الناس أعداء لما جهلوا، وأن تحويل الناس من عقيدة اعتنقوها، وعاشوا بها فترة من الزمان، ولو كانت فاسدة إلى عقيدة أخرى لم يألفوها وإن كانت هي عين الحق أمر عسير على النفوس، وصعب على القلوب؛ لأن العقيدة مهما كانت فاسدة لابد أن تترك أثرًا في قلب معتنقيها لا يزول بسهولة، ولا يتمكن صاحبه -ولو حاول- أن ينساه بسرعة.

ولقد رأينا أصحاب موسى عليه السلام كيف عاودهم الحنين إلى الشرك، بعد إيمانهم بالله ورسوله، بعد أن رأوا من آيات الله ما يثبت القلوب، ويركز الإيمان فيها، رأينا هذا الحنين عندما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. رأيناهم ترجموا الحنين إلى عمل حين اتخذوا العجل في غيبة موسى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ [طه: ٨٨].

ولعل هذا هو السبب في أن الرسول ﷺ لم يُقم الكعبة على قواعد إبراهيم -عليه السلام-

---

(١) الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها (ص٤٠٨).

كما أراد، وهو الأمر الذي أشار إليه بقوله لعائشة رضى الله عنها: «**لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين**»[(١)].

فعلى الدعاة أن يوطنوا أنفسهم على تحمل ما يلاقون من العنت من أعدائهم حين يدعونهم إلى الحق الذي لم يعرفوه، ويريدون إخراجهم من الباطل الذي ألفوه، لابد للداعية من أن يضع هذه الحقيقة نصب عينيه حتى يكون مستعدًا لكل ما يطرأ عليه وهو يقوم بتبليغ دعوته.

لقد أدرك هذه الحقيقة لقمان الحكيم، وهو يوصي ولده وصيته المشهورة التي ذكرها القرآن الكريم حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ **يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧** ﴾ [لقمان: ١٧].

ونلاحظ في هذه الوصية المباركة أن لقمان رتب الأوامر ترتيبًا يجب على الدعاة مراعاته، حيث بدأها بإعداد النفس وأخذها بالطاعة ﴿ **يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ** ﴾. ثم ثنى بدعوة الغير ﴿ **بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ** ﴾. ثم أمره بالصبر على ما يصيبه وتحمل ما يعرض له ﴿ **وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ** ﴾؛ ذلك لأن الإنسان عندما يتعرض لدعوة الناس إلى الخير، لابد أن يتصدى له أهل الشر، ويناله منهم أذى ولو كان قليلا.

إن إيذاء المصلحين ومن قبلهم الأنبياء والمرسلين، وهو سبيل الطغاة الظالمين عندما يفشلون في مقاومة الحجة بالحجة ودفع المبادئ بالمبادئ وإن التاريخ ليحدثنا، وكتاب الله بين أيدينا ليدلنا على أنه لم ينج نبي أو رسول أو مصلح قط من أذى الأفاكين المضللين، وفي تعبير القرآن الكريم تصريح لا يحتاج إلى توضيح بما يشعر بأن الإيذاء للداعين إلى الحق، لم يخل منه جيل، ولم يفلت منه مصلح، قال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وكما أدرك لقمان رحمه الله هذه الحقيقة فأوصى بها ولده، أدركها بعده ورقة بن نوفل وأخبر بها الرسول ﷺ حين انطلقت به خديجة رضى الله عنها ليقص على ورقة قصة الوحي،

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الحج باب فضل مكة وبنيانها (٢/ ٥٧٤) رقم (١٥٠٨).

فلما سمع ورقة ما قال رسول الله ﷺ، قال: «يابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبر الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذع[١] ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، قال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا»[٢].

ومن خلال هذه الكلمات الحكيمة من ذوي الخبرة والحكمة نعلم أن الدعاة لابد أن يتعرضوا للأذى قل أو كثر، قوي أم ضعف، وأنه لابد لكي ينجحوا في دعوتهم من توطين أنفسهم على الصبر على هذا الأذى واحتسابه عند الله، فلا يمنون به، ولا ينتظرون من ورائه جزاء ولا شكورا إلا من عند الله عز وجل ولهذا قال ﷺ: «**الصبر والاحتساب أفضل من عتق الرقاب، ويدخل الله صاحبهن الجنة بغير حساب**»[٣].

والقرآن الكريم يحدثنا عما أصاب المرسلين من الأذى والاضطهاد، فنوح عليه السلام تحمل أذى قومه ٩٥٠ عاما، وهم يزجرونه، ويقولون عنه مجنون، ويمرون عليه وهو يصنع الفلك فيسخرون منه، ويستهزئون.

فلما بلغ السيل الزبى دعا ربه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]. ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]. فيستجيب له ربه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

وإبراهيم قد ألقي في النار فقال الله للنار: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

وموسى قد أوذي إيذاءً شديدًا قال الله تعالى فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

---

(١) قال ابن منظور: أَي ليتني أَكون شابًّا حين تَظْهَرُ نبوَّته حتى أُبالِغَ في نُصْرته، لسان العرب (٨/ ٤٣).

(٢) مختصر سيرة الرسول (ص٧٢).

(٣) رواة الطبراني وذكره العلامة الألباني في ضعيف الجامع رقم (٣٥٣٧) وقال: ضعيف جدًا.

﴿ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وعيسى تآمروا عليه وحاولوا قتله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. ومحمد ﷺ تحمل ما لا يتحمله أحد من الأذى، وأوصاه الله بالصبر فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهكذا نرى أن الصبر على الأذى سلاح قوي يستعين به الدعاة فيصلون إلى بغيتهم ويحققون به آمالهم، وقد وعدهم الله أجرا عظيما فقال تعالى: ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

٥. الحلم:

الحلم سيد الأخلاق وهو من الخصال التي يحبها الله ورسوله، والحلم هو الصفح عن الذنوب، وهو الصبر الذي يصاحبه هدوء في الطبع بحيث لا يعاقب أحدا.

والحلم من أهم الأخلاق التي يتحلى بها الداعية إلى الله، لأن الناس كثيرا ما يصدر منهم ما يغضب النفوس، ويثير القلوب، فإذا لم يكن الداعية متحليا بالحلم، صدر عنه ما ينفر الناس منه، فلا يجتمع عليه أحد، ولا يستطيع النجاح في مهمته. ولهذا مدح الرسول ﷺ أشج عبد القيس لما فيه من الحلم والأناة فقال: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة**»(١).

والدعاة عادة يتعرضون لطبقات مختلفة من الناس، منهم المخلوق المهذب، ومنهم الشرس العنيد، وبالحلم يستطيع الداعية أن يلقى هؤلاء وهؤلاء، وأن يفسح صدره للجميع ويعامل كل واحد منهم بالقدر الذي ينفعه، ويستفيد منه، وهذا هو المطلوب من الدعاة حتى يستطيعوا كسب الأنصار، وتأييد المحبين لدعوتهم.

والحلم خلق من أخلاق الأنبياء، وصف الله به نبيه إبراهيم -عليه السلام- فقال: ﴿إِنَّ

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان - باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله رقم (١٧)، (١/ ١٤٥)، وسن أبي داود باب قبلة الرجل رقم (٥٢٢٧) (١٥/ ١٣٤)، الترمذي باب ما جاء في التأني والعجلة رقم (٢١٤٣).

﴿إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

«والحلم من الصفات التي يفطر عليها بعض الناس، وقد يكتسبها بعضهم اكتسابا، والواجب على من فطر عليها أن يتعهدها حتى لا تذبل، وأن ينميها حتى لا تموت، وعلى من لم يفطر عليها محاولة اكتسابها والتخلق بها، وذلك في مقدور الإنسان وطاقته؛ لأن الرسول ﷺ لما قال للأشج «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**» قال الأشج: «أهما خلقان تخلقت بهما -أي اكتسبتهما- أم جبلني الله عليهما؟ فقال الرسول ﷺ: «**بل جبلت عليهما**» »[(١)].

وليس المراد بالحلم السكوت على الهوان والاحتقار، فإن المؤمن عزيز كريم يأبى الضيم، ويرفض الذل، وإنما يكون الحلم عن جهل جاهل، أو سفه سفيه، أما تطاول غير هؤلاء من غير حق أو موجب، فذلك هو الهوان، والحلم المراد هو الذي يكون عند القدرة على أخذ الحق ورد الظلم، وأما أن يسكت الإنسان لعجزه عن الرد فذلك هو الضعف[(٢)].

ولهذا رأينا رسول الله ﷺ يحلم على الأعرابي الذي جذبه حتى أَثَر الرداء في عنقه ولم يسكت على تعريض سادة قريش به، وهم جلوس عند الكعبة، بل وقف عليهم مهددا متوعدا: «**أتسمعون يا سادة قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح**». قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر وقع، حتى إن أشدهم فيه وصاه قبل ذلك ليرفأه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: «انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا»[(٣)].

هكذا يجب أن يفهم الحلم حتى لا نخلط بينه وبين الهوان أو يلتبس علينا الأمر فنحسب الضعف حلما.

٦. التواضع:

التواضع ضد الكبر، والكبر أول معصية ارتكبت بعد خلق آدم عليه السلام، وأمر

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٦).

(٢) اسس الدعوة وآداب الدعاة (ص٩٨- ١٠١).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٠).

الشيطان بالسجود له فأبى استكباراً، وبسببه طرد إبليس من رحمة الله، وحقت عليه اللعنة إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]، فالتواضع: هو ترك الرياء والسمعة وقيل ضبط النفس عن الكبر والعجب والغرور، فالتواضع عكس الكبر والعجب والغرور والغطرسة والأنفة والشموخ.

والكبر: هو بطر الحق وغمط الناس أي استحقارهم، ولا يتصف به إلا كل فظ غليظ، لا يستحق أن يكون من أهل الجنة، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[(١)]. والفظاظة والغلظة صفتان منفرتان، والدعاة إلى الله مجمعون غير منفرين ولهذا قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد أثنى الله تعالى على طائفة من عباده فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤]. ولما قال فرعون لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء: ١٩-٢٠].

والتواضع هو خفض الجناح والتودد للمؤمنين وبخاصة المؤلفة قلوبهم منهم. قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. يقول الشوكاني في تفسير الآية: «يقال خفض جناحه إذا ألانه، وفيه استعارة حسنة، والمعنى: ألن جناحك وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم»[(٢)].

ويجب ألا يلتبس التواضع بالذل والخضوع، فالمؤمن عزيز النفس وحرام عليه أن يذل نفسه لغير إخوانه المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ ﴾ [المائدة:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم (٢٨٦٠).

(٢) فتح القدير للإمام الشوكاني (٤/ ١٢٠).

٥٤]. فالتواضع في الحقيقة هو إلانة الجانب مع عزة في النفس وإباء الضمير.

ومن التواضع عدم الافتخار بالآباء والأجداد، ومن التواضع عدم البغي والاعتداء، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(١).

والتواضع يمكِّن الدعاة من جمع الأنصار، ويحببهم إلى الناس فيستمعون إليهم ويتأثرون بهم ويتأسون بأفعالهم، ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في التواضع حتى قال أنس ﷺ: «إن كانت الأَمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»(٢).

والتواضع يجب أن يكون مع الناس جميعًا على حد سواء، فيكون مع الغنى والفقير والقوى والضعيف، والرئيس والمرءوس، لا فرق بينهم في ذلك، وهذا هو التواضع الذي يرفع صاحبه قدرا، وهو المقصود بقوله ﷺ: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه**»(٣).

ومن التواضع طيب الحديث والتبسم في وجه الناس، والرفق بهم، وعدم مؤاخذتهم بزلاتهم، وتهدئة روعهم إذا فزعوا، لقد كان رسول الله قدوة الدعاة في ذلك كله، قال ﷺ: «**والكلمة الطيبة صدقة**»(٤)، وقال: «**لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»(٥)، وقال: «**إن الله يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما يعطي على ما سواه**»(٦).

ولما جاء ملك الجبال، ووضع نفسه تحت أمره لينفذ له ما يشاء في قومه، وعرض عليه أن

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب، باب الكبر (٥/ ٢٢٥٥) رقم (٥٧٢٤).

(٣) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم (٢٥٨٨).

(٤) جزء من حديث رواه الإمام البخارى فى الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس رقم (٢٥٦٠).

(٥) رواه مسلم فى البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء حديث رقم (٢٦٢٦).

(٦) رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).

يطبق عليهم جبلي مكة -الأخشبين- لم يؤاخِذ رسول الله القوم بزلاتهم، ولم يستعجل الخلاص منهم، ولكنه قال: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا**»(١).

ودخل على رسولِ الله ﷺ رجل فلما قام بين يديه أخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال ﷺ: «**هون عليك فإني لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**(٢) **بمكة**»(٣).

عند ذلك نطق الرجل بحاجته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس إني أوحى إلى أن تواضعوا، ألا فتواضعوا فلا يبغى أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخوانا**»(٤).

٧. التجرد والزهد:

والتجرد هو الجد في نشر الدعوة والاجتهاد في تبليغها، والتفرغ لها وتقديمها على غيرها من مصالح الإنسان الخاصة.

والزهد هو عدم التطلع إلى ما في أيدي الناس، والاقتناع بما قسم الله من الرزق، وعدم تعليق القلب بالدنيا وزخارفها.

وهاتان الصفتان من أهم أسباب نجاح الدعاة في مهمتهم، لأن الداعي إلى الله إذا لم يجد ويجتهد في نشر الدعوة كسل وتبلد، والكسل والبلادة قعود عن الحق، وإهمال للواجب، ولا

---

(١) من حديث طويل متفق عليه، رواه البخاري باب إذا قال أحدكم آمين رقم (٣٢٣١)، ومسلم باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين رقم (٤٧٥٤).

(٢) القديد من القد وهو القطع المستأْصِلُ والشَّقُّ طولًا، والقدِيدُ: اللحم المُقَدَّدُ. والقديد: ما قُطِعَ من اللحم وشُرِّرَ وقيل: هو ما قطع منه طوالًا. وفي حديث عروة: كان يَتَزَوَّدُ قدِيدَ الظِّباءِ وهو مُحْرِم القديد: اللحم المَمْلُوحُ المُجَفَّف في الشمس فَعِيل بمعنى مفعول. والقدِيدُ: الثوب الخَلَقُ أَيضًا، لسان العرب (٣/ ٣٤٣).

(٣) المواهب اللدنية (١/ ٢٩٨).

(٤) الحديث سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

يمكن لكسلان أن يقوم بحق الدعوة، كما لا يتمكن البليد من تبليغها، ولأن تعليق القلب بالدنيا والاشتغال بتحصيلها يحول بين الداعية وبين الناس، فلا يجتمع عليه أحد، ولا يكون في قلبه مكان لدعوته حيث استحوذت الدنيا على قلبه وملكت عليه حواسه، ومن استولت الدنيا على قلبه سخرته لخدمتها، وعندئذ لا يكون فيه مكان للآخرة، لأنهما ضرتان.

والدعوة لا تنشر إلا بالعمل الجاد الدائب، والبذل المستمر الذي لا ينقطع، وكيف يبذل من همه جمع المال! بل كيف ينفق من غايته تحصيل الدنيا وجمع حطامها!

٨. الموعظة الحسنة:

طبيعة الكلمة العاطفية التي تدخل إلى القلوب برفق وأناة وهدوء فتلطف من حرارة الصدر وتعمق المشاعر بلطف وتنعش الوجدان في تؤدة، وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة فهي ترطيب لفكر الثائر وحل لعقد التقاليد الصعبة وإنقاذ من حيرة لاشعورية موهومة وطمأنينة تسكن ثورة الجموح، وكثيرًا ما هديت القلوب الشاردة بالموعظة الحسنة وإنها مع الطبائع الخيرة أفضل من الزجر والتأنيب والتوبيخ والتجريح.

وقد حرص القرآن الكريم كثيرًا على الموعظة الحسنة كأسلوب ووصف للكلمة التي يتلفظ بها الداعية.

ومع قسوة العذاب والتنكيل التي شنها أعداء الدعوة في عهدها المكي كان القرآن دائمًا يحرص على الوصية بالموعظة الحسنة يقول الله تعالى: ﴿ **ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ** ﴾ [فصلت: ٣٤].

فليس للداعية أن يرد السيئة إذ لا تستوى آثار السيئات وآثار الحسنات، كما لا تستوى كذلك قيمة كل منهما، فإن الصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مواجهة الشر بمثله قد يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة فتتقلب من الخصومة إلى الولاء، ومن الجماح إلى اللين، وكم تصدق هذه القاعدة فينقلب الهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجح إلى حياء.

إن الكلمة الطيبة تبقى قاعدة وأسلوبا في تبليغ الدعوة، ترد بنبرتها الهادئة ونسمتها الحانية

غضبًا متبجحًا مفلوت الزمام، فإن لم ترده هذه الكلمة الطيبة، فقد بقى للدعوة أنها كانت ولا تزال تحب له الخير غير أنه هو الذي لا يريد لنفسه ذلك.

وبالموعظة الحسنة يظهر للدعاة أن هدفهم هو حب الخير للناس بهذا الدين وحماية مستقبلهم في الدنيا والآخرة من الضنك والضياع، ثم يظهر لمعارضي الدعوة أو معارضي الخير لأنفسهم سؤال: لم لا يرد الدعاة السيئة بمثلها وهم قادرون عليها؟

إن الذي يمنع الدعاة هو الأسلوب المفروض عليهم: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وتلك الوظيفة تحتاج إلى سماحة تستعلي على دفعات الغيظ وشحنات الغضب وتحتاج إلى قوة توازن بين الدفع بالتي هي أحسن وبين السماحة التي تستعلي على الآلام والغضب والغيظ.

وهى معادلة دقيقة وصعبة جدًا ولكنها لازمة في تبليغ الدعوة حتى يستمر الداعية نشيطًا تدفعه الحسنى في المعاملة إلى مزيد من العمل دون حساب لسيئات المناهضين للدعوة.

وفى الإنسان وخاصة العربي طابع الحياء والشهامة التي تحب أن تعود إلى الحق وتعترف به كفضيلة خلقية لها، ولهذا أشاد القرآن الكريم بالموعظة الحسنة كأسلوب ووصف لنوع الكلمة التي يستخدمها الداعية في تبليغ الدعوة لأنها تتلاءم مع طابع الحياء أو الشهامة التي يتحلى بها الإنسان غالبًا، ولقد كان من نفحاتها إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب[1].

فقد أرجعتهم إلى صوابهم حسنات المسلمين فانقلبت ضراوتهم على الإسلام له تحمسًا وانتصارًا، وفتح الله بها للمسلمين فتحًا كريمًا. وما أحوج الحوار في هذا العصر إلى الموعظة الحسنة وخاصة مع أهل الكتاب.

---

(١) السيرة الحلبية (١/ ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٦٧). والتخطيط للدعوة للدكتور/ محمد الأحمدى أبو النور- مكتبة وهبة - (ص١٨٠، ١٨١).

٩. الحوار بالتي هي أحسن:

ومن الآداب أن يختار المحاور أرق التعبيرات وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر.

ولهذا استخدم القرآن في مخاطبة اليهود والنصارى تعبيرًا له إيحاؤه ودلالته في التقريب بينهم وبين المسلمين، وهو تعبير «أهل الكتاب» أو «الذين أوتوا الكتاب»، ولهذا جاء في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [النساء: ١٧١]. وقد تكرر هذا النداء في القرآن في أكثر من موضع[١]. والآية التي كان يرسل بها النبي ﷺ إلى ملوك النصارى وأمرائهم مثل قيصر والنجاشي والمقوقس: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

حتى المشركين الوثنيين لم يخاطبهم القرآن بقول: يا أيها المشركون، بل كان يناديهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ ﴾ [النساء: ١]، ولم يرد في القرآن خطاب للمشركين بالشرك أو بالكفر، إلا في موضعين فى سورة التحريم فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾ [التحريم: ٧]. ولكن هذا النداء يوم القيامة، وفى سورة ﴿ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾. وذلك لمناسبة خاصة هي قطع الأمل عند المشركين أن يتنازل المسلمون عن أساس عقيدتهم، وهو التوحيد، ولهذا كرر فيها المعنى الواحد بصيغ عدة تأكيدًا لتثبيته، ومع هذا ختمها بهذه الآية الكريمة التي تعد غاية في السماحة: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]، وإنما اصطدم الإسلام بالشرك واقتتل الرسول والمشركون لأنهم لم يقابلوه بمثل منطقه، بل قالوا لنا ديننا، وليس لك دينك، ولنا عملنا وليس لك عملك، من حقنا أن نعبد الأوثان وندعوا إليها، وليس من حقك أن تعبد الله وتدعو إليه، ومن اتبعك على دينك بإرادته واختياره كان علينا أن نفتنه عن دينه[٢].

---

(١) انظر على سبيل المثال: الآية رقم (١٥) من سورة المائدة، والآية رقم (٦٤) من سورة آل عمران.

(٢) الصحوة الإسلا مية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم - د. يوسف القرضاوى - (ص٢٤٦).

ولهذا وجب على المحاور ألا يتحامل على المخالف، ولا يقبح فكره، وما دام يريد أن يصل إلى الحق، فالمجادلة بالتي هي أحسن صفة الكلمة التي ينبغي أن يستخدمها الداعية مع هذا اللون من الناس، ليس هدف الداعية الغلبة ولا المخاصمة ولا الشهرة بالتفلسف، ولكن هدفه توصيل دعوة الله، فإذا احتاج الداعية مع صنف من الناس إلى جدال فليكن الجدال بالتي هي أحسن، بالإقناع الموصل إلى الحق في قالب الكلمة الطيبة بعيدًا عن الحماس الشارد عن الحجة البيضاء، وكثيرًا ما يختلط على النفس البشرية قيمة رأيها وقيمته عند الناس، حتى ليصبح التنازل عن الرأي تنازلا عن الهيبة والكيان.

فحدد القرآن الكريم أسلوب التبليغ مع هذا الصنف «الجدل بالحسنى». فإنه هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل بأن ذاته مصونة وقيمته محفوظة وكرامته موقرة، وأن ما يقصده الداعية من مجادلته هذه كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها حسبة لله لا ابتغاء نصر لرأيه وهزيمة لرأى الآخر[١].

و«بالتى هي أحسن» قيد مهم غفل عنه المسلمون فوقعوا في شباك مكيدة كانت مبيتة للأمة الإسلامية تواطأ عليها أعداؤهم من خارجها ومن داخلها، حتى أضناها الخلاف وضيعها التشدق والجدال[٢].

ثم هو قيد مهم كذلك لأخلاق الداعية الذي أُريد له أن يخرج عن إطار المنهج فيستنفى حتى ينفد صبره فيفسد منهجه، ولكي يطامن الداعية من حساسيته واندفاعه كان هذا القيد: ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ثم كان ختام الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فلا ضرورة إذن للحاجة في الجدل: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠]. والأمر بعد ذلك لله رب العالمين.

هذا هو أسلوب الدعوة ودستورها في التبليغ ما دام الأمر في دائرة الدعوة بالحكمة

---

(١) فى ظلال القرآن (١٤/ ١١٠).

(٢) التفكير فريضة إسلامية (ص٤٠- ٤٣).

والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فإذا ما تغير الموقف وصار الأمر من جهة الخصوم كلامًا بالسلاح كان للدعوة أسلوب ومنهج يتفق مع موقف المعاندين بعد أن أفصحت الدعوة لهم عن سموها وأخلاقها وحنوها على طول سنين[١].

وقد ذكر الإمام الغزالى في كتابه «القسطاس المستقيم»: «إن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم، وبالموعظة قوم، وبالمجادلة قوم»، وعلل لذلك بقوله: «فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير، وإن المجادلة استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمي.

وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كمن غذى البدوي بخبز البر وهو لم يألف إلا البر»[٢].

وهذا تصنيف مقبول من جانب إذا نظرنا إلى الأساليب الثلاثة مجزأة، الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ولكن إذا نظرنا إلى أحوال الشخص الواحد وأنه قد تعتريه حالات ثلاث:

- حالة الفطنة.
- حالة الوجدان والعاطفة.
- حالة الكبرياء والذاتية.

أدركنا أن هذه الأساليب الثلاثة تصح لرجل واحد قد يكون في حالة تستدعى الخطاب بالحكمة، أو تستدعى الخطاب بالموعظة الحسنة، أو تستدعى الخطاب بالجدال بالتي هي أحسن[٣].

وقد استخدم النبي ﷺ هذه الأساليب مع مفاوضي قريش، ففي المرة الأولى قرأ عليهم

---

(١) الجهاد فى سبيل الله د. رؤوف شلبى.

(٢) القسطاس المستقيم - الغزالى - (ص١١، ١٢).

(٣) التخطيط للدعوة (ص١٨٢، ١٨٣).

آيات «فصلت». وفى المرة الثانية قال لهم واعظا ومجادلا بالتي هي أحسن: «**ما جئتكم به أطلب أموالكم والشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علىَّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، وإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»(١).

يقول أستاذنا الدكتور محمود حب الله:

«وبما أن الإسلام دين عام، وهو دين منطق وحكمة ولا يهدف نحو تربية حاسة واحدة من حواس الإنسان، بل نحو قوى الإنسان كلها من قلب وعقل وعاطفة كان من الطبيعي له أن يخاطب كل هذه القوى النفسية ويهذبها لتتضامن جميعها في الإيمان وفى التربية الشخصية الإنسانية الحقة»(٢).

ولاشك أن هذه الحوارات التي تقوم على الإخلاص والتجرد والثقة واحترام الرأي الآخر، واختيار الألفاظ إلى غير ذلك، كل ذلك يكون وسيلة من وسائل التفاهم والتحاور والتقارب.

ولعلنا ندرك ثمرة هذه الآداب من خلال المحاورات التاريخية التي تمت في عهد النبوة وعهد الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين من بعدهم، حيث كانت هذه الآداب هي المسيطرة على روح الحوار، وهى التي تظله بظلها، لذلك كانت الثمرة المرجوة أكيدة ومحققة(٣).

---

(١) السيرة الحلبية (١/ ٣٤٠)، الشفاء (٢/ ٥٢٦).

(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية د. محمود حب الله (ص٢٨٧).

(٣) الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب د. ماجد عبد السلام إبراهيم.

المبحث الثاني
أصول عامة للحوار

والأصل في الحوار أن يتفهم كل طرف من المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر ويعرض فيه كل طرف أدلته التي رجَحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ في تبيين الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي تنير له بها بعض الجوانب المعتمة.

فالمهم في الحوار القرآني هو النتيجة، مع مراعاة الأسلوب الخاص بكل حالة لذلك كان المظهر العام للحوار القرآني هو معاملة الخصوم بما يتناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية، فكثيرا ما يكون حوار القرآن مع المشركين حوار هداية ودلالة، وقد يشتمل على تخطئة بعض مزاعمهم، بينما يكون مع أهل الكتاب حوار تخطئة وإلزام لأنهم على علم، أما حواره مع المنافقين فتبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوبًا بالتهديد والوعيد.

الأصل الأول(١):

سلوك الطرق العلمية والتزامها، ومن هذه الطرق:

تقديم الأدلة المُثبِتة أو المرجِّحة للدعوى.

صحة تقديم النقل في الأمور المنقولة.

وفي هذين الطريقين جاءت القاعدة الحوارية المشهورة: «إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل».

وفي التنزيل جاء قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]. وفي أكثر من سورة: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

---

(١) أصول الحوار للأستاذ الدكتور/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام الحرم المكى .

الأصل الثاني:

سلامة كلامِ المناظر ودليله من التناقض؛ فالمتناقض ساقط بداهة.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض أهل التفسير من:

١- وصف فرعون لموسى عليه السلام بقوله: ﴿ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴾ [الذاريات: ٣٩].

وهو وصف قاله الكفار -لكثير من الأنبياء بما فيهم كفار الجاهلية- لنبينا محمد ﷺ. وهذان الوصفان -السحر والجنون- لا يجتمعان، لأن الشأن في الساحر العقل والفطنة والذكاء، أما المجنون فلا عقل معه ألبتة، وهذا منهم تهافت وتناقض بيّن.

٢- نعت كفار قريش لآيات محمد ﷺ بأنها سحر مستمر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴾ [القمر: ٢].

وهو تناقض؛ فالسحر لا يكون مستمرًا، والمستمر لا يكون سحرًا.

الأصل الثالث:

ألا يكون الدليل هو عين الدعوى، لأنه إذا كان كذلك لم يكن دليلًا، ولكنه إعادة للدعوى بألفاظ وصيغ أخرى. وعند بعض المحاورين من البراعة في تزويق الألفاظ وزخرفتها ما يوهم بأنه يُورد دليلا. وواقع الحال أنه إعادة للدعوى بلفظ مُغاير، وهذا تحايل في أصول الحوار لإطالة النقاش من غير فائدة.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

الأصل الرابع:

الاتفاق على منطلقات ثابتة وقضايا مُسَلمة. وهذه المُسَلمات والثوابت قد يكون مرجعها أنها عقلية بحتة لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين؛ كحُسْنِ الصدق، وقبحِ الكذب، وشُكر المحسن، ومعاقبة المذنب.

أو تكون مُسَلمات دينية لا يختلف عليها المعتنقون لهذه الديانة أو تلك.

وبالوقوف عند الثوابت والمُسَلمات، والانطلاق منها يتحدد مُريد الحق ممن لا يريد إلا المراء والجدل والسفسطة.

ففي الإسلام الإيمان بربوبية الله وعبوديَّته، واتِّصافه بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص، ونبوة محمد ﷺ، والقرآن الكريم كلام الله، والحكم بما أنزل الله، وحجاب المرأة، وتعدد الزوجات، وحرمة الربا، والخمر، والزنا؛ كل هذه قضايا مقطوع بها لدى المسلمين، وإثباتها شرعًا أمر مفروغ منه.

إذا كان الأمر كذلك؛ فلا يجوز أن تكون هذه محل حوار أو نقاش مع مؤمن بالإسلام لأنها محسومة.

فقضية الحكم بما أنزل الله منصوص عليها بمثل قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وحجاب المرأة محسوم بجملة نصوص، منها قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقد يسوغ النقاش في فرعيات من الحجاب؛ كمسألة كشف الوجه، فهي محل اجتهاد؛ أما أصل الحجاب فليس كذلك.

الربا محسوم، وقد يجري النقاش والحوار في بعض صوره وتفريعاته.

ومن هنا فلا يمكن لمسلم أن يقف على مائدة حوار مع شيوعي أو ملحد في مثل هذه القضايا؛ لأن النقاش معه لا يبتدئ من هنا، لأن هذه القضايا ليست عنده مُسَلمة، ولكن يكون النقاش معه في أصل الديانة؛ في ربوبيَّة الله، وعبوديَّة ونبوّة محمد ﷺ، وصِدْق القرآن الكريم وإعجازه.

ولهذا فإننا نقول: إن من الخطأ -غير المقصود- عند بعض المثقفين والكاتبين إثارة هذه

القضايا، أعني: تطبيق الشريعة، الحجاب، تعدد الزوجات، وأمثالها في وسائل الإعلام، من صحافة وإذاعة على شكل مقالات أو ندوات بقصد إثباتها أو صلاحيتها. أما إذا كان المقصود النظر في حِكَمِها وأسرارها وليس في صلاحيتها وملائمتها فهذا لا حرج فيه، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأخيرًا فينبني على هذا الأصل أن الإصرار على إنكار المُسلمات والثوابت مكابرة قبيحة، ومجاراة منحرفة عن أصول الحوار والمناظرة، وليس ذلك شأن طالبي الحق.

الأصل الخامس:

التجرُّد، وقصد الحق، والبعد عن التعصب، والالتزام بآداب الحوار.

إن اتباع الحق، والسعي للوصول إليه، والحرص على الالتزام؛ وهو الذي يقود الحوار إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، أو هوى الجمهور، أو الأتْباع. والعاقل -فضلا عن المسلم- الصادق طالب حقٍّ، باحث عن الحقيقة، ينشد الصواب ويتجنب الخطأ.

يقول الغزالي أبو حامد: «التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروط وعلامات؛ منها أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد معاونه، ويرى رفيقه معينا لا خصما، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهره له»[(١)].

ومن مقولات الإمام الشافعي المحفوظة: «ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، وتكون عليه رعاية الله وحفظه. وما ناظرني فباليت أظهرت الحجة على لسانه أو لساني»[(٢)].

وفي ذمّ التعصب ولو كان للحق يقول الغزالي:

«إن التعصب من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى

---

(١) الإحياء (١/ ٤٢).

(٢) الإحياء (١/ ٢٦).

المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه. ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة، لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والتهم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وإلههم»[1]. والمقصود من كل ذلك أن يكون الحوار بريئا من التعصّب خالصًا لطلب الحق، خاليًا من العنف والانفعال، بعيدًا عن المشاحنات الأنانية والمغالطات البيانيّة، مما يفسد القلوب، ويهيج النفوس، ويُولد النَّفرة، ويُوغر الصدور، وينتهي إلى القطيعة.

الأصل السادس: أهلية المحاور.

إذا كان من الحق ألا يمنع صاحب الحق عن حقه، فمن الحق ألا يعطى هذا الحق لمن لا يستحقه، كما أن من الحكمة والعقل والأدب في الرجل ألا يعترض على ما ليس له أهلا، ولا يدخل فيما ليس هو فيه كفؤًا.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من كان على الباطل.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يعرف الحق.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يجيد الدفاع عن الحق.

من الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يدرك مسالك الباطل.

إذن، فليس كل أحد مؤهلًا للدخول في حوار صحي صحيح يؤتي ثمارًا يانعة ونتائج طيبة.

والذي يجمع لك كل ذلك: «العلم»؛ فلا بد من التأهيل العلمي للمُحاور، ويقصد بذلك التأهيل العلمي المختص.

إن الجاهل بالشيء ليس كفؤًا للعالم به، ومن لا يعلم لا يجوز أن يجادل من يعلم، وقد قرر هذه الحقيقة بني الله إبراهيم عليه السلام في محاجَّته لأبيه حين قال: ﴿ **يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي**

(١) الاحياء (١/ ٤٠).

﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

وإن من البلاء أن يقوم غير مختص ليعترض على مختص فيُخَطِّئه ويُغَلِّطه.

وإن حق من لا يعلم أن يسأل ويتفهم، لا أن يعترض ويجادل بغير علم، وقد قال موسى عليه السلام للعبد الصالح:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

فالمستحسن من غير المختص أن يسأل ويستفسر، ويفكر ويتعلم ويتتلمذ ويقف موقف موسى مع العبد الصالح.

وكثير من الحوارات غير المنتجة مردُّها إلى عدم التكافؤ بين المتحاورين، ولقد قال الشافعي رحمه الله: «ما جادلت عالما إلا وغلبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني!»[(١)]. وهذا التهكم من الشافعي رحمه الله يشير إلى الجدال العقيم؛ الذي يجري بين غير المتكافئين.

الأصل السابع: قطعية النتائج ونسبيَّتها.

من المهم في هذا الأصل إدراك أن الرأي الفكري نسبيُّ الدلالة على الصواب أو الخطأ، والذي لا يجوز عليهم الخطأ هم الأنبياء عليهم السلام فيما يبلغون عن ربهم سبحانه وتعالى، وما عدا ذلك فيندرج تحت المقولة المشهورة «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب».

وبناء عليه؛ فليس من شروط الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، فإن تحقق هذا واتفقنا على رأي واحد فنعم المقصود، وهو منتهى الغاية، وإن لم يكن فالحوار ناجح.

إذا توصل المتحاوران بقناعة إلى قبول كل من منهجيهما يسوغ لكل واحد منهما التمسك به ما دام أنه في دائرة الخلاف السائغ.

وفي تقرير ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكان بعضهم يعذر كل من خالفه في مسائل

---

(١) علم الجدل (ص١٤).

الاجتهاد، ولا يكلفه أن يوافقه فهمه»[١].

ولكن يكون الحوار فاشلًا إذا انتهى إلى نزاع وقطيعة، وتدابر ومكايدة وتجهيل وتخطئة.

الأصل الثامن:

الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون، والالتزام الجادّ بها، وبما يترتب عليها. وإذا لم يتحقق هذا الأصل كانت المناظرة ضربًا من العبث الذي يتنزه عنه العقلاء.

يقول ابن عقيل: «وليقبل كل واحد منهما من صاحبه الحجة؛ فإنه أنبل لقدره، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق.

قال الشافعي ﷺ: ما ناظرت أحدا فقبل مني الحجة إلا عظم في عيني، ولا ردها إلا سقط في عيني»[٢].

الأصل التاسع: المعيار «الرجوع إلى النص لدرء النزاع»[٣].

لابد من تحديد أصول يرجع إليها عند الاختلاف، وبذلك ينضبط الحوار ويتحدد مساره، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠].

وقال الله تعالى:﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن قيم الجوزية: «قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ ﴾ نكرة في سياق الشرط، تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون في مسائل الدين دِقه وجِله، جليه وخفيه، ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بيان ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافيًا، لم يأمر بالرد عليه، إذ من الممتنع أن يأمر الله تعالى بالرد عند النزاع إلى من ليس عنده فصل النزاع»[٤].

---

(١) المغني لموفق الدين ابن قدامة المقدسي.

(٢) علم الجدل (ص ١٤).

(٣)أصول الجدل والمناظرة فى الكتاب والسنة للأستاذ الدكتور/ حمد بن إبراهيم العثمان (ص٤٢٩: ٤٣٦) بتصرف.

(٤) أعلام الموقعين (١/ ٤٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا تنازع المسلمون في مسألة، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فأى القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه»[١].

وقال أيضًا: «وهذا لأن الناس لم يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا لعقولهم، فلكل واحد منهم عقل»[٢].

قال الخطيب البغدادى: «وأما الكتاب والسنة فهما الأصلان اللذان يقوم الاحتجاج بهما في أحكام الشرع على ما سواهما»[٣].

فلابد للناس من ميزان عادل يعرفهم صحيح الأمور من سقيمها وحقها من باطلها، ويعصمهم من الخطأ والزلل والضلال، وهذا الميزان هو الوحى. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾. قال كثير من المفسرين: هو العدل، وقال بعضهم: هو ما به توزن الأمور، وهو ما يعرف به العدل. وكذلك قالوا في قوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧]. الأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تجمع بين المتماثلات وتفرق بين المختلفات. وإذا أطلق لفظ ﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ كما في قوله: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣] دخل فيه الميزان، لأن الله تعالى بيّن في كتابه من الأمثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يعرف به الحق والباطل»[٤].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «لا نترك كتاب الله وسنة نبينا محمد ﷺ لقول امرأة لا ندرى لعلها حفظت أو نسيت»[٥].

---

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/ ١٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢١٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢١).

(٤) الرد على المنطقيين (ص٣٣٣).

(٥) رواه مسلم كتاب الطلاق عن الأسود بن يزيد رقم (١٤٨٠)، السنن الكبرى للبيهقي، باب من قال لها النفقة، ومستخرج أبي عوانة، والداراقطني، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء وغيره.

وكان السلف ميزانهم ومعيارهم هو الكتاب والسنة، لا يعدلون بهما أحدا ولا شيئا، ولما تناظر الشافعي مع إسحاق بن راهويه في كراء بيوت أهل مكة، فقال الشافعي: «قال الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ [الحشر: ٨] فنسب الديار إلي مالكها أو إلى غير مالكها؟ وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «**من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**» فنسب الديار إلى أربابها أم إلى غير أربابها؟ واشترى عمر بن الخطاب دارًا للسجن، من مالك أو من غير مالك؟ وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «**وهل ترك لنا عقيل من دار؟**» قال إسحاق: الدليل على صحة قولي أن بعض التابعين قال به. فقال الشافعي لبعض الحاضرين: من هذا؟ فقيل إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، فقال الشافعي: أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم؟ فقال إسحاق: هكذا يزعمون، فقال الشافعي: ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك فكنت آمر بعرك أذنيه، أقول قال رسول الله ﷺ، وأنت تقول: قال عطاء وطاوس والحسن، وهل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس لأحد أن يحتج بقول أحد في مسائل النزاع، وإنما الحجة النص والإجماع ودليل مستنبط من ذلك تقرر مقدماته بالأدلة الشرعية، لا بأقوال بعض العلماء، فإن أقوال العلماء يحتج لها بالأدلة الشرعية، لا يحتج بها على الأدلة الشرعية»[(٢)]. وهذا المعيار الوحي المنزل «الكتاب والسنة» معصوم من الخطأ والزلل، ولا يمكن مبتدع ولا كافر للعدول عنهما للحجج العقلية، فالعقل غير معصوم، والعقل شهد بصحة الشرع فلا يجوز الصدور عنه.

قال الشاطبي: «ومقصود المناظرة رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه؛ لأن رده بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق. فلابد من رجوعهما إلى دليل يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المستدل، وعلى ذلك دل قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ لأن الكتاب والسنة لا خلاف فيهما عند أهل الإسلام، وهما الدليل والأصل المرجوع إليه في مسائل

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٢٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٠٢-٢٠٣).

التنازع، وبهذا وقع الاحتجاج على الكفار، فإن الله تعالى قال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. أي فكيف تخدعون عن الحق بعد ما أقررتم به، فادعيتم مع الله إلها غيره؟ وقال تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]. وهذا من المعروف عندهم، إذ كانوا ينحتون بأيديهم ما يعبدون. وفي موضع آخر: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥]، وقال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال له ذلك بعد ما ذكر له قوله: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فوجد الخصم مدفعا، فانتقل إلى ما لا يمكنه فيه الدفع بالمجاز ولا بالحقيقة، وهو من أوضح الأدلة فيما نحن فيه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فأراهم البرهان بما لم يختلفوا فيه وهو آدم. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]. وعلى هذا النحو تجد احتجاجات القرآن، فلا يؤتى فيه إلا بدليل يقر الخصم بصحته شاء أم أبى.

وعلى هذا النحو جاء الرد على من قال: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية. فحصل إفحامه بما هو به عالم.

وتأمل حديث صلح الحديبية ففيه إشارة إلى هذا المعنى، فإنه لما أمر عليا أن يكتب «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» قالوا: ما نعرف «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال: «**اكتب من محمد رسول الله**»، قالوا: لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فعذرهم رسول الله ﷺ، وإن كان هذا من حمية الجاهلية، وكتب على ما قالوا، ولم يحتشم من ذلك حين أظهروا النصفة من عدم العلم وأنهم إنما يعرفون كذا.

وإذا ثبت هذا فالأصل المرجوع إليه هو الدليل الدال على صحة الدعوى، فلزم أن تكون مسلمة عند الخصم من حيث جعلت حاكمة في المسألة، لأنها إن لم تكن مسلمة لم يجز الإتيان بها، وليس فائدة التحاكم إلى الدليل إلا قطع النزاع ورفع الشغب»[1].

قال العلامة عبد الرحمن المعلمي وهو يتحدث عن معيار أهل السنة في قبول القضايا وتصحيحها: «القضية المحتاج إلى التثبيت فيها إما غير ماسة بالدين ألبتة، وإما ماسة به.

فالأولى: لا شأن لهم بها بل يدعونها لعلماء الطبيعة.

وأما الثانية: فإما أن لا تكون من المأخذ السلفي الأول وإما أن تكون منه.

فالأولى: لا يعتدون بها إلا أن بعضهم قد يتعرض لها إذا وافقت المأخذين السلفيين، وأما الثانية: فيحكمون فيها الشرع، فإن وجدوه جاء بما يخالفها علموا أنها باطلة، وإن وجدوه أقر الناس على اعتقادهم الديني بحسبها علموا أنها حق، لأن الشرع لا يقر على مثل هذا إلا وهو حق، فأما إذا زاد الشرع فجاء على وفقها فتلك الغاية.

فهذا المعيار هو الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده وكره لهم ما عداه، فهو الصراط المستقيم وسبيل الله وسبيل المؤمنين، وله مزايا لا تحصى، منها: أنه أتم وأعم من معيار المتعمقين الضئيل الفائدة، ومنها: أنه لا يؤدي إلى ما وقعوا عليه في شرحه. ومنها: أنه لا يؤدي إلى الاختلاف في الدين وتفريقه، بدليل أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يختلفوا، فإن أدى إلى اختلاف ما فلا يكاد يكون إلا من قبيل الاختلاف في فروع الفقه، لا يلزم المخطئ فيه كفر ولا ضلال، على أنه إن خيف اختلاف في الدين كان الواجب على الأكثر في زمن غلبة الخير عدم التدقيق، وعلى الأقل كتمان قولهم كما جرى عليه السلف في مسألة القدر. ومنها: أن المخطئ إذا لم يقصر تقصيرا بيِّنًا يرجى له العفو، لأنه لم ينشأ خطؤه عن اتباع غير سبيل المؤمنين، والتماس الهدى من غير الصراط المستقيم. ومنها تيسر المعرفة بدون خروج عن الصراط المستقيم ولا اتباع السبل المفرقة عن سبيل الله عز وجل، إذ يكفي للمعرفة العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بدون حاجة إلى التعمق والمنطق والفلسفة.

---

(١) الموافقات (٤/ ٣٣٥-٣٣٦).

ومنها: أن العامة لا يحتاجون معه إلى التقليد المريب الموقع للمسلمين في الاختلاف والتفرق والتنابذ والتنابز والفتن، لأن القضية إما أن يتفق عليها علماء الدين فتكون إجماعا، وإما أن لا يظهر فيها مخالفة إلا ممن يشذ فيكون اتباع الجمهور المعلوم أنهم إنما يتبعون كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أخذًا بالراجح الواضح.

وهذا إنما يحتاج إليه في فروع العقائد التي لا يضر عدم استيقانها، هذا مع أنه يسهل على العلماء أن يذكروا للعامة الحجة النقلية فيفهمها العامة فيكونون متبعين للشرع، وبذلك تطمئن قلوبهم، ويزيد إيمانهم، ويعظم ثوابهم»[1].

(١) التنكيل (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).